مريم عبدالحكيم

شاهد قبل الحذف

(الكل متدين حتى تأتي العاهرة)

obeikan.com

الكتـــــــاب: شاهد قبل الحذف

المـــؤلــــــف: مريم عبدالحكيم

تصميم الغـــلاف: إسلام مجاهد

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقــم الإيـــداع: 2911 / 2017

الترقيــم الدولـــي: 1 - 157 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0227931911 - موبايل: 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

مريم عبدالحكيم

شاهد قبل الحذف

(الكل متدين حتى تأتي العاهرة)

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى أبي وأمي وأخويّ .. اللهم احفظهم لي واحفظني لهم وبارك لي فيهم.

إلى كل متشائم .. يا من يئست من تحقيق حلمك واستسلمت أمام من أوصدوا في وجهك الأبواب.. بين يديك العمل الثاني لفتاة لم تكن قد بلغت العشرين.. تحملت وثابرت إلى أن استطاعت في النهاية الوصول لما أرادت.

إلى دفعتي من العباقرة.. دفعة العظماء.. الفرقة الثالثة.. كلية الإعلام جامعة القاهرة.

إلى كل من دعم الابن الأول "ما زلت منتظرة"، ولولا تشجيعهم ما خرج الابن الثاني للنور وأخص بالذكر:

د. أحمد عبد السلام دياب.. كلية الإعلام - قسم العلاقات العامة والإعلان – جامعة القاهرة.

د. هايدي سامي زكي.. كلية الآداب - قسم اللغة الفرنسية – جامعة القاهرة.

إلى كل صحفي ساهم بقلمه في إنجاح الابن الأول.. وعدتكم برد الجميل في

obeikan.com

العمل الثاني، وها أنا أوفي.. وأخص بالذكر:

د. محمد وليد فتح الله بركات – يمنى طارق.

إلى كل دار نشر لا زالت تتعسف في شروطها مع شباب الكتاب.. إلى متى؟

إلى شهداء الكرة في مصر.. لم ولن ننسى .. "غاب القصاص فهانت الأرواح".

إلى شهداء ٢٥ يناير.. لم يكن يتوقع أحد كل ما سيحدث.. تحية لكم على نزولكم دون خوف، ووصمة عار على جبيننا، عجزنا أن نكمل الطريق الذي بدأتموه.

إلى مي مدحت.. إلى زوجة الكابتن مروان رجب.. إلى والدة الكابتن محمد الشوربجي.. إلى مئات العظيمات.

إلى كل فتاة مصرية.

obeikan.com

كلمة لكل قارئ

لعلك لاحظت في فهرس فصول العمل أن العناوين تتكرر.. هل تراه أمرًا غريبًا؟!

فلأخبرك منذ البداية أن الصفحة الأولى من روايتي هي ذاتها الأخيرة بدون أي فرق.

في تجربة فريدة من نوعها يقدم الكاتب لقرائه النهاية منذ الدقائق الأولى، ويعدهم في الوقت نفسه أنهم رغم علمهم بنهاية العمل فإن الأحداث لن تكف عن التصاعد، وأن النهاية التي يعرفونها لن تغير من الأمر شيئًا!!

obeikan.com

الفصل الأول

خالتي بتسلم عليك

وجدته أمامي..

لم أكن أتوقع قدومه وأكاد أجزم أنه هو الآخر لم يكن يعلم أني هنا.

لو كان متأكدًا لما جاء!

مرت لحظات صمته كسنوات مع نسمات الهواء المنعشة، بدا المشهد مُثيرًا وتساءلت:

كيف سيبدأ؟ ماذا سيقول؟

هل يتهمني مجددًا ويُنصب نفسه قاضيًا يُطلق حكمه دون هوادة؟

أم يُفكر بقلبه ولو لمرة ويُحاول أن يسألني عن السبب؟

وفكرتُ في أن أسأله أنا:

إن كان يشعر بالذنب أو إن جال بخاطره يومًا أنه السبب فيما وصلت إليه.

أن تخاذله هو ما قادني إلى الهاوية.

وسألته وأنا أعرف الإجابة مُسبقًا..

obeikan.com

كالعادة، أنـا المُخطئة، وإن كان خطأي هذه المرة لا يُغتفر لأنـه يتعلق بالشرف.

الشرف لا يُمكن التهاون فيه..

- مش كده يا "مصطفى"؟

و لم يرد..

وأردفت:

- حتى مفكرتش تسأل عني!

- آخر حاجة عرفت إنك روحتي لخالتك.

- آه فعلًا .. خالتي بتسلم عليك..

وضحكتُ بصوت عالٍ..

تعجبتُ من شروده وعدم تعليقه!

شعرتُ ببرودة الجو ولم تُسعفني الملابس الخفيفة التي ارتديتها فور علمي أنه قادم، والتي من المؤكد أنها لن تصمد أمام الهواء والرياح العاصفة.

وظللتُ صامتة في انتظار أن يبادر بالحديث.

ولم يفعل كعادته!

وبدأتُ كعادتي!!

obeikan.com

سألته عن رأيه ولم تتغير ملامح وجهه وأجاب باقتضاب:

إنتِ مش "يمنى"! -

وكظمتُ غيظي وآثرتُ الصمت..

استفزني بهدوئه والكلمات الثلاث.. وكذلك هاتفه الذي أخرجه من جيبه.

ونظرتُ إلى أمواج البحر والسماء التي بدت كبقعة سوداء لا ينيرها سوى بقايا القمر.

بدا المنظر مخيفًا وإن طمأنني وجوده.

وسرعان ما بدأتُ في استراق النظرات خلسة لملامح وجهه!

أكره أن يراني أراقبه.

لا يعلم أني لو سُئلتُ عن تفاصيل يومه لانطلقت بسرعة جنونية أسردها بدقة...

ومع ذلك أأبى أن يراني كذلك.

تظاهرتُ بعدم الاهتمام، وبالنظر إلى الأمواج التي تتلاطم في عنف، وإن كان اهتمامي كله منصبًا نحوه.

لماذا يجعلنا هذا الشعور أغبياء؟

منذ أحببته وشعوري بالغباء لم يبرحني قط.

obeikan.com

- إنتِ زعلتي؟!

قالها وعيناه ثابتتين على هاتفه.. ولم يعبأ حتى بالنظر إليّ .

وأخرجتُ هاتفي في محاولة ساذجة لاستفزازه ولم يتأثر!

عجبًا لهؤلاء الرجال.

أهذه هي طريقتكم لإرضائنا؟

ما هذا السؤال.. ألا تبدو الإجابة واضحة أمامك؟ ألم تلحظ أني كدتُ أحطم رأسك منذ قليل، أو ألقي بهذا الهاتف اللعين في مياه البحر أمامي.. أيهما أقرب لإزعاجك!

وأردف قائلًا دون أن ينتظر ردًا مني مما بالغ في حنقي:

أكيد الثانوية العامة مغيرتكيش أوي كده!

وكأنه يُحادث طفلة ويُذكرها أنها ستذهب غدًا صباحًا إلى المدرسة.

وإن كان على حق.

فقد تغيرتُ بالفعل!!

عام كامل أضيف حديثًا إلى سلسلة الأعوام التي راحت هباءً منثورًا في رحلتي الطويلة مع التعليم ومعاناتي.

عام كامل..

obeikan.com

كان عليّ أن أتحمل كل سخافاته وبغض النظر عن النتيجة في النهاية.. فيُحسب لي ولكل من مروا بهذه الكارثة اجتيازنا لها بسلام دون الإصابة بأحد الأمراض الميؤوس من علاجها وتشخيصها، وهو النجاح الأكبر.

ونبهتني الرياح التي هبت من جديد وعصفت بقوة هزت النخيل، الذي تتميز به مدينة العريش الساحرة، وكأن قوى الطبيعة هي الأخرى بلغ بها من الضيق الحد الذي دفعها إلى التعبير عن سخطها والثورة.

السخط..

كلمة لا تكفي للتعبير عن حالتي خلال هذا العام المنصرم، صراعات جعلت النوم يُخاصم جفوني طيلة الأيام والليالي.

الأمر مُعقد بالفعل!

دعوات أمي لا تُفارقني، نظرات الشماتة في عيون أقربائي ورغبتهم في السخرية مني، ومن إصراري في الحصول على الشهادة.

لم تكن الشهادة تعنيني في شيء قدر ما كان يعنيني أن أثبت للجميع أني على حق، وأن أثبت لهؤلاء الأغبياء أن أمي أحسنت تربيتي وكانت بالفعل خير أم لخير ابنة.

لا أريد أن تُتاح لهم فرصة ولو لثوانٍ أن يعيدوا ذكريات ماضٍ أليم لم يكن لي أو لأمي يد فيه..

obeikan.com

كنتُ أذاكر المواد السخيفة.

كان عددها سبعًا تقريبًا أو ستًا لا أريد أن أتذكر!

لن أنسى اللحظة التي بكيتُ فيها بمرارة فور علمي أني في حاجة إلى تدخل جراحي عاجل، حينها فكرتُ في المدة التي سأمتنع فيها عن المذاكرة وتحصيل الدروس، وإن كانت المدة التي قضيتها في الفراش هي التي غيرتني كليًا.

تسليتُ حينها بقراءة "الأيام" للعبقري طه حسين.. كانت المرة الأولى التي أقرأها بدون أن أفكر في الدرجات.. قرأتها بدون ضغوط أو خوف من الامتحان الذي سيعقده لنا الأستاذ في الغد.. لم أتضايق حينها من بائع البليلة.. وشعرت بالأسى لحالي وحال كل الأجيال التي فُرض عليها دراسة هذه الرائعة الأدبية بطريقة خاطئة، حرمتنا من تذوق هذا العمل الأدبي الفز.

- القصيدة أهي كنت بدور عليها.. مش أصغر منك ده ولا إيه؟

كلمات سمعتها منكِ..

أعادتني لماضٍ لم أعشه أبدًا..

لتريني خطيئة لم أرها قبلًا..

أين أنا؟ أوادي العشاق ههنا؟

obeikan.com

لكني لا أرى إلا عاشقًا واحدًا..

هو أنتِ يا فاتنة..

أما هو بك لا يبالي؟

فمحبوبته في الأعالي..

ومحبوبتي أنا في قلبي طاعنة..

في حضوره تذوبين كالجليد!

بيديه يشكلك كما يريد..

لمساته تلهبك بالتنهيد..

وتطعن قلبي بجرح عنيد..

قبلها وضمها كما تشاء..

فهي بيديك وردة حسناء.

لا لن تقاوم ولن تستاء..

فالحب عندها غلب الحياء..

غرامك لها قمة الرياء..

وغرامي جعلها سيدة النساء.

بنيران الهوى تحكي وتروي.

obeikan.com

ونيرانها هي جحيم حولي.

جفت أدمعي وبكيت الدما!

وبسم الفراق انتحر الهوى..

خذيني للموت إذًا واقتلي..

نفسًا غدت للحزن أسيرة..

حياتي لم تعد لكي و لم؟

تكن للحياة دونك لذة..

ضاع الحب وضاع الهنا.

من قسوة آلامي صارخ أنا.

أين أنا؟

أهذا وادي العشاق؟

لا بل هو وادي الفراق!

وادٍ يشد علينا الخناق..

وألمه إلى الأبدية باقٍ..

فلنهرب يا نفسي من هذا المكان..

فالخطيئة شاهد عليها الزمان.

obeikan.com

الحبيبة اختارت طريق الهوان..

وحيدًا تركتني كبقايا إنسان.

"مينا سمير".. بالفعل قصيدته رائعة.

رفيق دروس اللغة الفرنسية، كانت صداقتنا عادية باستثناء كلمات التشجيع، التي كان يُلقيها على مسامعي في كل مرة.

وزادت الكلمات بعد علمه أني أحاول الكتابة وتسجيل خواطري، وما تعرضتُ له في شكل قصصي.

ما تعرضتُ له!

لو كنتُ في مجتمع آخر لما كان عليّ أن أقص كل ما تعرضتُ له حتى أغلق الباب في وجه كل متطفل يمنح لنفسه الحق في البحث عن ماضيّ، وعن السر الذي حدا بي إلى أن أكون معهم.

- مهو مش معقول تفضلي ساكتة كده!

وعدتُ إليه وابتسمتُ مُحاولة أن أكشف القليل عنه، وعن هذه التركيبة العجيبة.

ألا زال مُحتفظًا بالقصيدة؟!

مرت مدة طويلة منذ ألقيتها على مسامعه، والغريب أنها لم تكن تعني له شيئًا.. بل اكتفى بكلمات مُقتضبة حينما سألته عن رأيه فيها.

obeikan.com

ولماذا سألته؟!

أهو شاعر.. يفقه أي شيء في علوم اللغة العربية وبحورها..

ألا يذكر "المقبول" التقدير الذي لم يتنازل عنه طيلة السنوات الست التي قضاها في كلية "الحقوق"، وسيظل فيها إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

نعم، لماذا سألته عن القصيدة؟ ولماذا قرأتُ عليه الخاطرة التي كتبتها لتوي؟!

والأهم..

لماذا تحتاج الأنثى دائمًا إلى رجل يُشاركها كل لحظات حياتها؟

ولكن لا.. كانت أمي خير مثال أمامي.. لم تتأثر نهائيًا بـ....

وقاطعني:

- والله فيلم عربي!

واحتددتُ قائلة:

- أكيد لأ.

حاولتُ بشتى الطرق أن أثنيه عن رأيه..

أن أثبت له أن الحياة قادرة على ذلك، وأن القدر بارع في رسم مستقبلنا

obeikan.com

وأننا بالفعل في مجتمعٍ يحاكم دون وجه حق.

وقاطعني للمرة الثانية:

المجتمع مش هيتغير.. دي ثوابت وأمر واقع.. لكن تفكيرك ده بعيد أوي إزاي واحدة متعلمة ومثقفة تعمل كده.. الجهلة بس هما اللي بيعملوا كده.. الجهل أو الفقر.

وسكت قليلًا ثم تابع وضحك ضحكة ذات مغزى..

شاهدنا هذا الفيلم سويًا..

الكلمة ساخرة وتعمدتُ أن أستخدمها في نهاية الخاطرة وألا استبدلها بأخرى..

كثيرًا ما تضاحكنا بشأن ذكاء رجال المخابرات أن تكون هذه الكلمة هي كلمة السر.. الكلمة لها مفعول السحر بالنسبة لي، يكفي أني أستخدمها للسخرية من بعض الناس.

ذات مرة، سألتني واحدة من صديقات أمي عن رأيي في الزواج من ابنها الشاب، الذي نجح في أن يتولى منصبًا رفيعًا في أحد أكبر البنوك فهمستُ بهذه الكلمة وأنا أحاول أن أرد ردًا مُهذبًا قدر المُستطاع.

وعاد ليسألني:

- بالمناسبة.. أخبار خالتك إيه؟

obeikan.com

- زي ما هي.

لن تتغير هذا المرأة..

في المرات القليلة التي نزورها حرصًا على صلة الرحم، ورأيي أنها لا بد وأن تفكر في الكف عن النفاق.

أن تكف عن ترديد عبارات الترحيب المُنمقة والكلمات التيُ تبالغ في استخدامها.

وعدت إليه من جديد وآبى ألا أن يظل عند رأيه لنتضاحك في النهاية..

- طب والله إنت صعيدي.

وقام دون أن يرد بعد أن ارتسمت الضحكة على وجهه وإنارته وخفق قلبي.

كل مرة أراه فيها وكأنها المرة الأولى!

وكأن القدر يُرغمني على الإعجاب بكل قسمات وجهه وبعينيه اللتين تنطقان وتبوحان بالكثير دون حتى أن يتحدث.

البحر أمامي تتلاطم فيه الأمواج، وكذلك رأسي يكاد ينفجر هكذا حادثتُ نفسي..

أقر أن ما كتبته لم يكن سوى هراءات تعمدتُ أن أجادل "مصطفى" فيها لأظل معه مدة أطول.

أعلم أن لقاءاتنا باتت سهلة..

obeikan.com

لا مفر من الالتحاق بجامعة القاهرة لأكون بجانبه.

وتأهبتُ للرحيل ولا يوجد على لساني سوى دعاء صادق من كل قلبي لله عز وجل أن يجمعني الله به، كي لا تأسرني الأشواق مرة أخرى.

لو أدركتُ حقًا الوقت الذي تُستجاب فيه الدعوات لما تأخرت للحظة عن الدعاء وجعلتها دعوة واحدة لا تبرح لساني..

."اللهم لا تُفرق بين اثنين جمعهما الحب في يوم من الأيام"

وابتسمت ودعوتُ أيضًا:

."ويا رب مجموع عالي كمان عشان جامعة القاهرة"

وقمتُ وتأهبتُ للعودة ووجدتُ "ياسين" أمامي فعدنا سويًا دون أن نتحدث طوال الطريق لـ"الشاليه"، وظل كلانا مُستغرقًا في خواطره.

obeikan.com

الفصل الثاني

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

أسئلة معتادة ألقتها عليّ المذيعة.. حتى هذا السؤال!

لا أدري لماذا ترددتُ قليلًا قبل أن أجيب عنه..

أن أبعث برسالة لكل الطلاب ولكل المشاهدين.

رسالة!

"يُمنى عادل" تبعث برسالة.

الأيام دُول يا لصدق هاتين الكلمتين، فقد حان الوقت الذي أبعث فيه برسائل وآنت اللحظة التي أنصح فيها من هم أصغر مني سنًا.

ودمعت عيناي وقلت:

- أنا بس عايزة أشكر أمي..

ولم أتمالك نفسي من البكاء.. وأمام إصرار المذيعة على الحصول على إجابة..

قلت:

– صدق نفسك تتصدق.. أنا صدقت إن فيه حلم لازم أوصله ووصلت.. بس كده.

وعادت المذيعة تُلقي المزيد من الأسئلة..

وتألمت عيناي من نور كشافات الإضاءة المُسلط علي وجهي وتأملت ديكورات الاستوديو الرديئة..

من المؤسف أن يكون هذا هو المستوى الخاص به.

حدثني "مصطفى" قبلًا عن أحد أصدقائه..

لا أذكر اسمه بالتحديد، كل ما أذكره أنه طالب في كلية الإعلام ويُجيد كل فنون التصوير والاضاءة والمونتاج إلى آخر هذه الأشياء.

أخبرني أيضًا أنه مثال للشاب المكافح الذي لم يستسلم بعد وفاة والديه وسرعان ما تنقل من عمل إلى الآخر كي يُدبر الأموال اللازمة لإخوته.

ووجدت المذيعة تتوجه لي بخالص الشكر وتُلقي كلمات المدح والثناء وتودع السادة المشاهدين إلى أن تلقاهم في لقاء آخر.

وتمنيتُ رؤية والدي الآن..

كانت اللحظات التي أحتضن فيها صورته قبل أن أنام كافية لأن أشعر بالاطمئنان، وبأن ظلام الغرفة لا يُخيف!

من أصدق العبارات التي قرأتها عما يُطلقون عليه خطأ "الحب" كانت عن

obeikan.com

حب الأب لابنته والعلاقة بينهما.

أهو حب؟ صدقوني نحن بحاجة إلى تعبير أكثر دقة من هذه الكلمة الصماء.. مصطلح يعبر عن الأمان.. عن الراحة.. عن السكينة.. عن الأب.. ألم يفكر أحد أن هذه الكلمة تبخس حقه وتظلمه!!

لا أنكر محاولات أمي المُستميتة كي تُشعرني أنا وأخي بأنه ما من شيء ينقصنا، تحملت أمي في سبيل ذلك الكثير ولكن!

المواقف التي مررتُ بها أكدت لي أن أمي مهما حاولت، ستظل هناك حلقة مفقودة لا تكتمل إلا بوجود الأب في المنزل.

ووجدتُ "ياسين" في استقبالي في الغرفة المجاورة للاستوديو يُخبرني عن حلقة جديدة في صباح الغد، وهذه المرة في قناة فضائية.

ولم أتمالك نفسي من الفرحة..

واستأذن "ياسين" للابتعاد قليلًا للرد على الهاتف.. لا بد أنها هي من تكلمه الآن.

أيتعمد مضايقتي؟

حتى في هذه اللحظة التي أحلق فيها في السماء وأشعر بفرحة غامرة تعترينني.

هكذا هم الرجال ولن يتغيروا..

obeikan.com

ولماذا أتضايق؟!

هي معتادة على ذلك بل إنها الآن اتصلت به في وقت مبكر.. إنها التاسعة مساءً يجب أن أتوجه لها برسالة شكر.

تستفزني ردود أفعال أمي.. لماذا تسمح له بذلك؟

الإجابة واضحة ولا داعي للخوض في تفاصيلها مجددًا، كي لا تضيع عليّ الفرحة.

وعدتُ للمنزل ووجدت أمي نائمة.

يا للصدمة.. ألم تُشاهد الحلقة؟

مسكينة، بالتأكيد كان العمل مرهقًا فلم تقدر وغلبها النعاس.

وذهبتُ في سبات عميق أنا الأخرى..

أتاني صوته من بعيد.. لا زال يكلمها إلى الآن وسيظل إلى الرابعة من فجر غد على أقل تقدير.

لن أخبر أمي، فالإجابة معروفة والمُجادلة معها لن تُجدي نفعًا.. كالعادة.

واستيقظتُ في صباح اليوم التالي وأمسكتُ بالهاتف..

تحادثنا كثيرًا.

كانت هذه عادته.. أحيانًا نتحادث بالساعات وأحيانًا أخرى تمر الأشهر

obeikan.com

دون أن أراه حتى!

أعتقد أنه ما من شعور أفضل من الاستيقاظ على رسالة كهذه:

."أنا فخور بيكي"

سمعتها كثيرًا في الأيام الماضية، ولكن دائمًا ما تكون كلماته لها أثر مختلف.

تبعتها رسالة أخرى..

. "أنا بجد بدعي كل يوم إني أشوف أسماء أختي زيك"

وأردف قائلًا دون أن يترك لي ولو ثانية لأجيبه بالعبارة المعهودة كلما أخبرني بأمنيته تلك.

"يا رب تشوفها أحسن".

- بس ليه؟

ماذا يعني بسؤاله؟!

ولم يتركني كثيرًا في حيرتي..

فاسترسل في الحديث عن مساوئ التعليم الحكومي، وأن الفرصة كانت سانحة أمامي للالتحاق بإحدى الجامعات الخاصة.

لم يكن وحده هو الذي اقترح هذا الأمر..

obeikan.com

حتى أمي عرضت عليّ التفكير في الأمر ذاته، ولكنها لم تُرد أن تُجبرني على ذلك.

أخبرتها مرارًا أن المكان لن يُضيف للشخص..

ما الفائدة من التحاقي بأفضل جامعة في مصر؟ الأهم هو ما سأقوم به في المكان الذي أتواجد فيه..

هل أنجح في ترك بصمة أم لا؟!

وأكمل:

- جامعة خاصة أكيد أفضل.

وسألته عن السبب..

- خايف عليكي.. أنا سألت ناس صحابي، العدد في القسم ده قليل ومش نفس مدرجات القسم العادي، وبعد التخرج فرص الشغل كويسة وبمرتبات عالية.. بس أنا فعلًا خايف.

وتبعت رسالته هذه الكثير من الرسائل، ولكن يبدو أن عينيّ قد عمت عن إبصار غير هاتين الكلمتين.

فلم أعبأ بحديثه عن الكليات الحكومية ومستوى الطلبة المادي والفكري والاجتماعي، رغم أن الشعبة التي سألتحق بها من صفوة القوم كما يُقال.

- مش مقتنعة بكلامي؟

obeikan.com

ولم أشأ أن أخبره بأني لم أقرأ سوى هاتين الكلمتين تقريبًا، وأني لم أعر الباقي أدنى اهتمام.. وأن هاتين الكلمتين كافيتان لإدخال السرور على قلبي أعوامًا قادمة.

وظللنا نتحادث إلى أن أنهينا كل الموضوعات تقريبًا.

ووعدني أن نلتقي في الجامعة وكالعادة احتضنتُ الهاتف وظللتُ أعبث في الهاتف وأقرأ الرسائل القديمة، منذ أول يوم التقينا فيه.

في هذه المرة تشاجرنا بشأن رأيي الذي لم أحد عنه قط..

"الكتابة ليست موهبة فجميعنا من الممكن أن يُخرج مشاعره عليى الأوراق".

حينها أرسلت له هذه الخاطرة التي كتبتها "سلمي أشرف"، كم أحب هذه الفتاة وأشعر دائمًا أنها مميزة ومختلفة، لم أر من يشبهها إلى الآن.. كلماتها أثرت فيّ بشكل كبير.

كنت أرانا دائمًا على مقعد، مقعد أتقاسمه معك نجلس عليه سويًا وتذهب أنت لتحضر لي بعض الحلوى.. فأتحسس مكانك مبتسمة ناظرة لك وأنت تذهب بخطواتك بعيدًا عني لأجد قلبي يرتجف فأدعو الله ألا يخلو ذاك المكان منك ومن وجودك به بجانبي.. وأن تعود لي مجددًا لتضيء بنظراتك المكان وتُعيد بأنفاسك إليه الروح.

لطالما حلمت ببيت صغير تجري فيه تلك الصغيرة ذات الضفيرتين

obeikan.com

الملونتين باللون البني والعينان ذات اللون العسلي، ذاك اللون الذي زاد عينيك جمالاً فأخذته تلك الجميلة منك لأبتسم لها وأرى جمال الكون كله بعينيها.. أي أراك فيها.

لطالما أردت أن أُبيد كل نساء العالم أو أُدمر الكون كله عدا جزيرة صغيرة أتركها لتجمعني بك

وأتقاسم معك كل شيء فيها بدون شريك.

لم يقتنع بما أقول!

وحتى حينما أخبرته في تلك المرة عن "فاطمة" جارتي، التي تسكن بجانبي، التي واجهت الكثير من المشاكل في العمل إلى أن أجبرت على تركه في النهاية والكثير، والكثير.

ربما كانت ردود فعله المُضحكة بالنسبة لي هي ما يدفعني إلى إخباره بهذه الأشياء..

لن أنسى المصطلح الذي قاله لي "أدهم" عن رأيه في انتشار الكتب بهذا الشكل في الدورة الماضية من معرض القاهرة الدولي للكتاب، فأخبرني أن الكتب الآن تتشابه كثيرًا مع مياه الصرف الصحي، حينها لم يتمالك نفسه من الضحك.

ردود فعله لا تتغير.. حتى عندما أخبرته عن "الجروب" الذي أنشأته واحدة من صديقاتي باسم "عودي يا ميادة"، ودعت كل من تعرفه ليشارك في

obeikan.com

التخفيف عن "ميادة" صديقتها ودعمها.. حينها سألته عن هذه العلاقة العجيبة بين الصديقتين.. لم يتفق معي واعتبرها مبالغة.

اتفقنا مرة واحدة تقريبًا.. أن موهبة هذه الفتاة "غصون حجاج" استثنائية، وأنها ستصل إلى أعلى المراتب في يوم من الأيام.

أما الباقي فالشجار لأتفه الأسباب.

وإن كانت سعادتي مرهونة بهذه المشاحنات التي أتعمدها أحيانًا ليغضب كالطفل الصغير، ويضحك في النهاية فيبتسم كل ما حولنا، وأعود بعدها لأتنفس محادثتنا من جديد وأشعر كأني أحلق في السماء.

obeikan.com

الفصل الثالث

محل ملابس - شبرا الخيمة

أحيانًا أشعر وكأن الكلمات لا جدوى منها وأنه من الأفضل أن نترك لأعيننا فرصة كافية للبوح بما تجيش به صُدورنا.

سور المدرسة!!

ذكريات وراء هذا السور لا حصر لها.

حتى الملابس التي افترشها الباعة ورفعوا أصواتهم منادين عليها جذبًا لأكبر عدد من الزبائن

عجيب أمر هؤلاء!!

يبدو الأمر وكأنهم توارثوا المكان عن آبائهم وأجدادهم..

أعوام مرت منذ كنتُ في المرحلة الابتدائية.. إلى الآن ولا زالوا في المكان نفسه لم يبرحه أحد منهم.. بعض الوجوه تبدو مألوفة بالنسبة لي.

أتذكر العام الذي أخبرتني فيه أمي أن ميعاد الرحيل قد حان!

لم أفكر سوى في هذا المكان.. هل سأترك المدرسة بالفعل؟

obeikan.com

طوبى للأطفال..

لم يكن يشغلني سوى المكان الذي ألهو فيه مع صديقاتي، أما أمي فتعاني من أرق وتفكير مميت حول مستقبلي الذي بات الخطر يهدده.

من طفلة اعتادت على إلقاء تحية الصباح باللغة الفرنسية وحفظت منذ نعومة أظافرها أغاني

"إيديت بياف وسيلين ديون".

إلى طفلة لا بد وأن تتعايش مع زميلاتها في المدرسة الحكومية.

فرق شاسع.. شتان بين راهبات الراعي الصالح والمدرسة الأخرى التي لا تجسر على ذكر اسمها أمام أمها.. حلم التحدث باللغة الفرنسية وإجادتها كلفتها الأم تبدد في الهواء والسبب المال!

عجبًا لسحر هذه المادة!

تتحكم في كل شيء .. بدونها لا قيمة لهذه الأوجه ولهؤلاء الناس.

وهطل المطر بشدة..

فجأة وبدون سابق إنذار كعادة ما تفاجئنا به الحياة وكعادة اللحظة التي كنت أظنها أكثر ما قد يؤلم

"الموت".. وتأكد لي أن تبعاتها تؤلم أكثر بكثير!

وكان لا بد لي أن أحتمي من المطر الذي أخذ يهطل دون رحمة وجري الباعة

كالمجانين يجمعون بضاعتهم ويغطونها، ولم أحاول الدخول للمدرسة ولو من الباب الخلفي..

تسليتُ بالسير تحت المطر دون أن أعبأ بملابسي التي ابتلت تمامًا أو أعبأ بتعليقات بعض الحمقي..

لو كان الأمر بيدي لبصقتُ في وجه كل من يقولها ولحطمت رأس كل من يُبرر لهم هذه الأفعال.

هؤلاء لا عقل لهم!

أما هؤلاء فلا أدري كيف لي أن أجد تشبيهًا يليق بأمثالهم، وهم يتفاخرون برفع أصواتهم دون خجل قائلين: "إنتِ بنت".

لعنة الله عليكم..

بحسب ما تقولون لا حق لي أن أخرج من بيتي حتى.

كثيرًا ما كان هذا موضع الخلاف بيني وبين عائلتي..

أقارب أبي – رحمة الله عليه – وأقارب أمي التي لم تكن ترضى بهذا الرأي على الإطلاق وتحتج، ولكن تذهب آراؤها مع الريح ولم يعد لنقاشها جدوى.

وكذلك الآلام التي داهمتها مؤخرًا ولم تعد قادرة.

بئس هذا الشعور!

الأمطار تهطل دون رحمة وزادت مُتعتي وإحساسي بالانطلاق وعدم الرهبة

obeikan.com

من هذه الأوجه التي تتسلى بمراقبتي.

ورثتُ هذه العادة من أبي..

السير بسرعة أو كما تُطلق أمي "مشية العسكري"، ويا لحنقي وضيقي إذا وجدت من يبطئ أو تبطئ في سيرها.

غريبة أنا!

خطواتي سريعة فقط في السير على العكس تمامًا من حياتي العادية، حيث التفكير المتأني لكل خطوة قبل أن أخطوها.

لطالما أثار هذا الأمر سخريته واستهزاءه، ووجدت اسمه في خانة المتصل وأنهيتُ المكالمة بسرعة، فقد اشتد المطر بالفعل وسيكون من العسير عليّ إنجاز المهمة التي خرجتُ من أجلها.

فقلتُ له بعد اكتراث:

- سلام دلوقتي.

نظرتُ بعدها لشاشة الهاتف.. ما هذا الغباء الذي اقترفته لتوي.. تعجب من إنهائي للمكالمة بسرعة وتحججتُ إني مشغولة.. حماقة ولا شك.. قالها الرافعي قبلًا..

"في قلبها منك شيء.. تحب ألا يظهر لك، وتحب كذلك ألا يخفى عليك!! الأمر سهل إذن والمشكلة فيكم بكل تأكيد.

openkan.com

وفكرتُ في النزول للمترو، هذا المكان اللعين، ولكن عرض عليّ صاحب محل ملابس أطفال الوقوف بجانب الباب والكف عن السير.

وتوقفتُ لوهلة عن التفكير "كعادتي"..

أحقًا ما قام به؟!

لقد دخل المحل وخرج لتوه وفي يده بعض المناديل كي أجفف رأسي ووجهي.

وتوقف المطر، وظللتُ واقفة أراقب هذا الرجل الغريب الذي قدم لي مساعدته مشكورًا دون أي تلميحات أو نظرات أو كل هذه الأشياء التي يتنافس فيها الرجال.

شكرته ولا زلت غير مُصدقة وعدتُ إدراجي مرة أخرى إلى أن توقفت أمام المحل الذي أقصده.

ما أشقانا بنات حواء!

أكثر من الثلاث ساعات هي المدة التي سأقضيها فقط في التنقل بين الفساتين المختلفة، ثم ثلاث ساعات أخرى لاختيار أي منها سأقوم بارتدائه وأعود للمنزل في النهاية دون شراء أي من هذه الفساتين.

اختيار فستان ليس بالأمر السهل.. خاصة لو كانت المناسبة حضور عُرس أحد الأقارب.

obeikan.com

منذ صغري ولم أخالف أمي في الرأي سوى في أمرين ربما ثانيهما معقد نوعًا ما يتعلق بجملة قالتها لي ذات مرة.

وأولهما هو اقتناعها التام أن حضور حفلات الزفاف هي الوسيلة الأنسب لاختيار العريس المناسب، ولم يكن باستطاعتي أن ألومها على هذا التفكير، وقد قاربت على الستين من عمرها.

أما من صادفتهن من الفتيات وكان تفكيرهن هو ذاته.. فلم أنكر شعوري بالشفقة عليهن.. كثيرًا ما تساءلت أهن ساذجات إلى هذه الدرجة؟

أم أن طموحهن بالفعل هو "الرجل"!

لذا ألوذ دائمًا بالصمت.

أتجنب المناقشة مع أمثالهن سعيًا للنجاة من الصداع والآلام التي تصحب عادة الحديث معهن.

الصمت، الوسيلة الأكثر فعالية حتى في الجامعة!

هذا العالم الذي أتوق لاقتحامه.. أكاد أجزم أن الصمت سيكون حليفي فيه أيضًا.

لا يتوافر لدي أي استعداد لتحمل ثرثرة الفتيات حول الشباب واختيار العريس وشراء الأطعمة وكل هذه التفاهات.

سيرجعونها إلى فارق السن بيني وبينهن دون شك.

لم يكن فارق السن يومًا مشكلة سوى في تساؤلات المتطفلين.

أمي وأخي يشيرون إلى أنه من الواجب أن أخبر الجميع كي لا أترك لأحد الفرصة للتنبؤ أو التكهن بما حدث لنا بعد وفاة أبي.

أما أنا فأشعر أنه من الواجب أن يلزم الجميع المسافات الشخصية في علاقاتنا مع بعضنا البعض.

ولكن، أني لهذا المجتمع أن يؤمن بهذا!!

وقمت بتصوير ثلاثة من الفساتين على هاتفي لأريهم لأمي، وقالت البائعة جملتها المكررة:

عقبال خطوبتك. –

الرجل مرة أخرى!

وشكرتها بابتسامة صفراء.

الابتسامة ذاتها التي ارتسمت على وجهي فور قراءتي لرواية "بين الأطلال".

ابتسمتُ في البداية، ثم انطلقت في سيل من الشتائم.

لم أتأثر ككل من قرأ الرواية بقصة الحب التي جمعت البطلين وعبارات "يوسف السباعي" وأسلوبه الرومانسي الخاص به، الذي يعزف على أوتار القلوب ويُشكل لحنًا جميلًا لم أقرأ شبيهًا له إلى الآن.

obeikan.com

ولكن، أين أنت أيتها البطلة؟ وما الذي اعتراكِ؟

أين كلامك الذي بدأت به أحداث الرواية وطموحك للوصول للوزارة وتحرير المرأة؟ تزوجتِ في النهاية!

كانت خادمتك على حق، وأطلقت عليها ظلمًا "أم جهل".

وتذكرت..

"عم عباس" كيف فاتني السؤال عليه؟

حارس المدرسة أو كما كان يحب أن نناديه "أبو صافي" تُرى كم عمرها الآن؟

وحمدتُ الله على عدم شرائي أي من الفساتين لأقوم بإعطائه مبلغًا من المال يساعده على إكمال الحياة ومواجهة الغلاء.

واستقبلني بالترحاب كعادته وبوجهه البشوش الذي غزته التجاعيد، وتجاذبنا أطراف الحديث وسألته عن "صافي" فتردد قليلًا في الإجابة عن السؤال.

دُهشت وبدأ القلق ينسل إلى ثناياي..

إلى أن تحدث وأخبرني أنها الآن في السادسة عشرة من عمرها ثم سكت قليلًا، وقال وهي الآن مع زوجها في الإسكندرية.

زوجها!

obeikan.com

لولا كبر سنه لظننته يمزح وإن كانت ملامح وجهه تنم عن جدٍ خالص..

ولم أدر بماذا أجيبه أو ما هو الرد الأمثل في موقف كهذا..

حتى السبب لم أبد رغبة في معرفته علي الإطلاق.

أهو الفقر؟!

وظللنا صامتين كلانا يُفكر في الآخر.. وسألني عن والدتي محاولةً منه في تهدئة الجو قليلا

أخبرته أنها بخير..

فأردف قائلًا:

– ست عظيمة، أنا شفتك في التلفزيون يا بنتي من كام يوم لما اتكلمتي عنها وشكرتيها، استحملت كتير أوي، ربنا يجازيها عنك وعن أخوكِ خير.

فهززتُ رأسي قائلة:

يا رب. –

ولا زالت حالة الدهشة تُسيطر عليّ..

وتابع:

– بصي يا بنتي مفيش أب وأم إلا وبيتمنوا لولادهم الخير.. وأنا كنت فرحانلها.. كنت خايف آه بس فرحان.

obeikan.com

والدتك قالتلي جملة شوفي من كام سنة بس محفورة هنا ومش هتطلع..

وأشار إلى رأسه..

- محدش يحاول يقف قصاد الزمن هيتكسر.. إحنا آخرنا نوطي راسنا عشان منقعش من كتر الخبطات اللي فوق دماغنا لكن نعاديه.. مش هنكسب.. وده اللي هي عملته معاكي ومع أخوكي وإلا مكنتيش وصلتي للكلية دي.

ومكنتيش لسه متكرمة من الوزير أول إمبارح وبقيتي الأولى على الجمهورية.

واعترضت..

أمي حاربت الزمن بكل قوتها ووهنها بعزمها وضعفها.. عملت في أكثر من جهة بعد وفاة أبي وجمعت الأموال من كل حدبٍ وصوب حتى استطاعت إعادتي لهذه المدرسة مرة أخرى ونجحت في التكفل بالمصاريف التي تطلبها المدرسة وتحقيق حلمها.

وقاطعني:

- بس الحلم أتحقق وأنتِ عندك ٢١ سنة واللي أدك في رابعة كلية يعني حتى لو حاربناه هنطلع خسرانين، فالأسلم نعمل زي ما عملت مع "صافي".

عجوز مُخرف، لن أصفه سوى بهاتين الكلمتين.

يُفكر كالباقين، أن من هم مثلي في العمر في السنة الدراسية الرابعة،

obeikan.com

بينما سأخطو أولى خطواتي مع بداية هذا العام الدراسي الجديد.

وقبل أن أرحل سألته سؤالًا واحدًا..

- يعني إنت مغلطتش؟

- الزمن هيوريكي يا بنتي.

وعدت أدراجي للمنزل وأنا لا أفكر سوى في كلام "عم عباس"، وفي مصير ابنته المسكينة.

كيف حالها الآن.. بالتأكيد أُصيبت بمس من الجنون ولا لوم عليها..

اللوم على أمثال والدها من الجبناء وأمثال زوجها من عبيد الجسد.

obeikan.com

الفصل الرابع

جمعية عرابي - مدينة العبور

للمرة الثانية في حياتي تنزل دموعي وتنهمر من فرط الفرحة.

واختلطت دموعي بمساحيق التجميل التي اجتهدتُ في وضعها وتسمرتُ أمام المرآة أكثر من ساعتين أعدل وأعيد وضع الأشياء والمستحضرات وارتديتُ الفستان ذاته الذي حضرت به العرس منذ أربعة أشهر تقريبًا.

لا أدري كيف انقضت الأيام سريعًا كهذا.. كل ما أشعر به الآن هو أني أكرم من الكلية التي لطالما حلمت بدخولها.

حتى الكلمة، انهمرت دموعي أثناء إلقائي لها.. ظللتُ لوهلة غير مُصدقة.

لا يُقدر هذا الشعور..

أدهشتني فرحة زملائي وزميلاتي.. أراهم عباقرة. سُحقًا لهذا البلد الذي يقتل الإبداع ويدفن المواهب.

جميعهم في العام الأول، ولكن لو أتيحت لهم الفرصة لما ترددوا للحظة، بل إن بعضهم هو من صنع لنفسه الفرصة ولم يرض بوضع اسمه على قائمة الانتظار.

أخبروني أكثر من مرة أني قدوتهم، وهذا الكلام الذي أسمعه مرارًا حتى من عائلتي.

يا لغرابة القدر ويا لحكمة الله!

أصبحتُ اليوم مضربًا للأمثال وجميع أفراد العائلة يتضرعون إلى الله ليل نهار كي يروا أولادهم مثلي في يوم من الأيام.

وألقيتُ الكلمة وجلست لأسترد أنفاسي ولا زلت بين عدم التصديق وبين الإيمان أن ما يحدث هو حقيقة.

مر الفصل الدراسي الأول وستمر الأيام سريعًا في هذا المكان كي أحقق لأمي حلمها الأكبر

."الزواج"

لا يُمكنني الرفض أو حتى محاولة إبدائه!

مسكينة، لن تفهم. ولكن الإذعان لرغبتها شر لا بد منه.

أخبرها بذلك فتضحك في مكر قائلة:

- شر برضه؟

وتُذكرني به، ونضحك سويًا.

وتأهبتُ للعودة لمنزلي وأنا أحمل شهادة التكريم في يدي وألقي التحية على زملائي.

openkan.com

وعدتُ فاحتضنتُ أمي وسجدتُ شاكرة لله عز وجل، ورجوته أن يشفي أمي ويهدي أخي.

"الدعوة التي أواظب عليها في كل صلاة أصليها".

بالطبع، مع دعوات أمي لي أن أداوم على أداء الفروض الخمسة في مواعيدها، كي يرضى الله عز وجل عني.

كثيرًا ما قالت لي أن ما ينقصني هو "الصلاة"، وبها لن تشوبني شائبة.

وانتهيتُ من صلاتي وقلتها بقلب خاشع:

"اللهم لك الحمد، اللهم أسألك أن تشفي أمي والهداية لأخي كي ترتاح أمي".

آمين يا الله، اللهم استجب.

وارتديتُ ملابسي واستعددتُ للذهاب.. المسافة بعيدة بعض الشيء ولكن تحذيرات أمي طوال الطريق لم تجعلني أمل.

وبدا "ياسين" على غير العادة صامتًا..

أو لأكن صادقة مؤخرًا أصبح يلوذ بالصمت!

لا أنكر أن له الحق في ذلك ولكن، ما ذنبي أنا وأمي؟!

حتى القرار الذي اتخذه مؤخرًا دون الاقتداء برأي أي منا... ليسامحه الله.

أكاد أتمزق عندما أرى ملامح الألم ترتسم علي وجهها حينما يسألها أحد

obeikan.com

عن عمر ابنها أو في المرات التي نصادف فيها من هم مثله في العمر، ولكنهم تخرجوا قبله بأعوام كثيرة.. أشعر بالسكين الذي يمرق في قلبها دون رحمة.

أنا نفسي لم أصدق.. عندما بلغنا بنتيجته ورسوبه في ثلاث مواد.. ادعى أن هذا في صالحه.. واستسلمت أمام منطقه هذا.. لم يكن أمامي سوى الاستسلام.

وصلنا قاعة الزفاف، للمرة الأولى في حياتي أحضر هذا النوع من الأفراح "الأوبن إير"..

وتأخر العروسان ولكن لا بأس، الفيللا ديكوراتها مبهرة.. حمام السباحة.. الإضاءة.. كل ما في هذا المكان مُبهر ويستحق عناء الطريق بالفعل، فالوصول لهذه الجمعية لم يكن سهلًا.

المكان مُخيف ليلًا.. قمتُ وتجولتُ في أنحاء الحديقة الكبيرة التي بدت أشجارها الضخمة حراسًا لها.

وظهر العروسان من بعيد..

كانت المرة الأولى التي أرى فيها عرسان يتأخرون إلى هذا الحد.

وتأملت "ياسين" وتألمت!!

قراره كان صدمة للجميع.. حاشا لما يقوم به أن يُطلق عليا حبًا.

obeikan.com

بات صامتًا وهذا من أكثر ما يؤلمني.. لو صمت الجميع فعليه أن يتحدث.. عليه أن يشركني في كل أمور حياته.. أبسط حقوقي عليه.. كان هذا عهدنا.

هو لا يفهم أن صمته هذا يقضي عليّ في كل يوم آلاف المرات.. ألا يدرك أنه لم يعد لي سواه، وأن حديثه لي هو ما يجعلني أواجه وأتحمل.. نظراته هي التي تشعرني بالدفء وبالأمن..

تُعوضني عن أبي وعن شعوري بالعُري الدائم.

حُجة حاول مرارًا إقناعنا بها.. لا يفهم أن عينيه تفضحان كذبه وتعلله بالحب ورغبته في الزواج وأن يترك الكلية لأنها تُعوقه.

لو فكر كل الشباب مثله لما استقامت الحياة لأحد منهم.

وتساءلت:

أيكون صمته هذا تعبيرًا عن شعوره بالذنب تجاه ما بدر منه، وأنه يُعد السبب الفعلي في الأزمات الصحية التي لا حصر لها، والتي عانت منها أمي مؤخرًا بعدما أخبرنا بأنه تحدث مع "وكيل الكلية"، وقام بتأجيل العام الدراسي.

لا أذكر بالضبط رد فعل أمي فور سماعها هذا النبأ..

كل ما أذكره دعواتها المستمرة أن يُسامحه الله.. أستمع لدعائها عليه في جوف الليل ثم بكائها في النهاية قائلة:

"اللهم لا تستجب"!

كنتُ أتعجب من هذا القلب وهذا الحب!

أخطأ "ياسين" خطأ كبيرًا، يعلم تمام العلم أنها تعد الأيام والدقائق وتنتظر اللحظة التي يتخرج فيها في الجامعة، وترى شهادته في يدها.

ومع ذلك لم يُبالِ!

في الوقت الذي تخليتُ فيه عن كل ما أحب تقريبًا كي أحصل على المجموع وألتحق بالجامعة

وأُشعر أمي أن الأيام ها هي تمر، وأن السنة الدراسية التي قام "ياسين" بتأجيلها لن تضيره شيئًا

ولكن أنا نفسي لم أكن أصدق..

ودخل العروسان.

يا لجمالهما، وتخيلت "مصطفى" هو الواقف بالبدلة السوداء بضحكته الطفولية..

تُضايقه هذه الجملة كثيرًا، ولكن سأظل أقولها رغم السجائر التي يشربها والشيشة وكل هذه الأشياء، ولكن تظل ضحكته طفولية تُريح القلب أو بالأحرى تبعث شعورًا جميلًا كنسمة هواء في يوم قائظ أو "حلم ليلة صيف" رائعة "شكسبير" كان حلمًا بالفعل.

أحيانًا ، تُجبرنا الحياة على التخلي عن أحلامنا رُغمًا عنا.

obeikan.com

الكتابة كانت حلمًا والانتظار لنهاية الكلية للزواج كان حلمًا ولكن راحة أمي هي الأهم.

لماذا لم يُفكر "ياسين" كذلك؟ لماذا تجاهلنا إلى هذا الحد؟!

وأخذتُ في التقاط الصور لهما، أكثر من عشر صور أسلط العدسة على عيونهما، وعلى بريقهما

وتوهجهما.

وذهبتُ لأجلس بجانب أمي، الليلة رائعة بالفعل، لم يُضايقني سوى حديث هؤلاء البدينات من حولي وأزواجهن عن ذكرى ليلة زفافهم. ألا يمل هؤلاء؟!

وانسحبتُ من جلسة الثرثرة هذه، وكانت لحظة مناسبة فقد قام العروسان للرقص.

"أغنية فرنسية"، وتهللت أسارير أمي فأنا الوحيدة التي سأفهم الأغنية.

كثيرًا ما أفكر هل ستُقيم أمي لهذا الأمر كل هذا الاهتمام لو جرت حياتنا بشكل عادي مثل باقي هؤلاء الناس؟

بالطبع لا!

وانتهى العروسان وصفق الجميع، وصفقتُ بحرارة وحان موعد الطعام وهجمت الجيوش الزاحفة

ولم تكن لي شهية وحتى لو.. منظر هؤلاء المتصارعين يُفسدها بالطبع.

عدتُ للنظر لهذه القاعة..

المهندس عبقري وأبدع في تصميم كل جزء فيها.. المنطقة نموذجية، اختيار الفيللات لإقامة الأفراح قرار صائب بدلًا من القاعات والأماكن التقليدية.

وانتهت مراسم الزفاف واحتضنتُ العروس، وأمي تكرر لي قبل أن أذهب وأسلم عليها أننا وُلدنا في نفس العام وعليّ أن أكون مكانها قريبًا جدًا.

وبالطبع، أسرع بالإعلان عن موافقتي وأسرع أيضًا بالسلام الحار الذي يفوح منه النفاق على كل أقاربي وعلى خالتي.

وركبنا السيارة في طريقنا للعودة، وأنا لا أفكر سوى فيه.

مرت فترة طويلة دون أن نلتقي، يكتفي بأحاديثنا عبر وسائل "السُخف الاجتماعي"، كما أحب أن أسميها.

وأتقن الدور تمامًا، أجيد الادعاء أنه لا يشغلني وأنه من الطبيعي ألا نلتقي في الجامعة وكل منا في كلية غير الأخرى.

ويُنهي كلامه بعبارته التي حفظتها:

"إنت هتبقى حاجة كبيرة أوي، يا رب أشوف أسماء زيك". –

ثم يُشعل سيجارته وينفث دخانها في تلذذ ويُعلن احترامه لمدة الهدنة أثناء حديثه معي..

obeikan.com

أقر في حديثنا الأخير أني لم أكن مخطئة حين اخترتُ الشعبة الفرنسية في الكلية وأثنى على قراري الذي نبع من تربية "الراهبات" في مدرستي والطريقة التي يُشكلن بها عقول الفتيات.

نظرة انبهاره تعني لي الكثير، والكثير ربما لتأكدي من صدقها..

أخبرتني أمي ذات يوم أن الرجال كلهم خائنون، أجبرتها على استثناء "مصطفى" من القاعدة إلا أن..

كاد "ياسين" أن يفقد التحكم في السيارة وكادت تنقلب بالفعل لولا ستر الله.

وزاد قلقي وارتباكي مما يُخبئه لنا القدر في الأيام القادمة..

تصرفات "ياسين" تُشير إلى أن القادم سيكون أسوأ بكثير مما فات.

obeikan.com

الفصل الخامس

صالة ٢ - مطار القاهرة الدولي للركاب

رُبما أعجز الآن عن الوقوف على قدمي ولكني واثقة أن الإغماءة الطويلة التي ذهبتُ فيها ولم أشعر بما حولي خير لي من أن أكون مُدركة لمُجريات الأمور.

ذكريات الليلة الماضية!

رأيته بالفعل يصفعها دون رحمة..

اقتربت من أنفاسه أتوسل إلى الله أن أشتم رائحة خمر أو أي رائحة تُخبرني أنه تحت تأثير مخدر وأن ما قاله لتوه لا يقصده.

بالطبع لم يقله عمدًا.. ولكن!

كل ما حدث يؤكد أنه قد خطط لكل شيء بدقة منذ وقت طويل وحتى لو خطط واستعد جيدًا ورتب أموره.. هل كانت هذه العبارة ضمن خططه؟!

أهذا هو؟ أهذا وجهه وهذه ملامحه؟ قطعًا لا.

ذات مرة، أثناء فرضه بعض القيود التي يتعين عليه إلزامي بها ولابد من السمع والطاعة العمياء دون نقاش فكلماته أوامر.. فرمانات عسكرية فهو

obeikan.com

الرجل وهو المجتمع ذاته الذي سمح له بكل هذا.

هل ستسمح أيها المجتمع العظيم الذي تدعي الفضيلة ويدعي أناسك التقوى والخوف من الله.. هل أعرض عليكم وأقص على واحد واحد منكم ما قام به أمس لأرى ردود أفعالكم.

وما الفائدة؟!

أراه أمامي الآن يستعد للركوب والإقلاع.

بهذا البساطة؟!

أخبرني أنه كان في حاجة للأموال فسحب مبلغًا من المال من الحساب الجاري وأخبرني أن عودته قريبة وأن الحياة هنا باتت مستحيلة ولا تُطاق، ولن يقدر على تحملها أكثر من ذلك..

وسافر.

دون أن يترك لي الفرصة حتى في احتضانه والبكاء.

كنتُ أود البكاء بمرارة..

من الأهون عليّ أن أوقف أحدًا من الموجودين في الصالة، وأن أبكي بكل ما أوتيت من قوة وألم أهون عليّ أن ينعتوني بالمجنونة بدلًا من أن تخنقني دموعي بهذا الشكل.

ولأول مرة أتخلى عن "مشية العسكري" سرتُ على مهل وكأني أتساقط مع

obeikan.com

كل خطوة وعدت للمنزل!

لم تكن تتوقع المسكينة دخولي عليها وحدي، وكان صمتي هو ملاذي فالكلمات لن تُجدي ولن تُغير من الأمر شيئًا.

أخذت تردد دون تفكير:

- ليه.. عملت إيه؟!

ثم قامت ووجدتها تتوضأ وهمست:

أنا هصلي.

أهو إيمان أم أنها لم تعِ الموقف جيدًا؟!

وهذا الآخر ها قد تركني أسير وحدي وأعود ليلًا دون تحذيراته المستمرة.. لم يلق لها بالًا الآن ..

ألهذه الدرجة؟

أكتب الآن وأنا في المحاضرة، مُنتهى العبث أن أترك أمي وآتي إلى هنا أستمع لتلك الهراءات التي يقولها هذا الأخرق.

وكان أمن الكلية يطلبني، هذا الأستاذ الذي يقبع مكتبه بجوار المدخل، لا أذكر اسمه بالتحديد.. لماذا الآن؟

يعلم الله كيف ارتديتُ ملابسي وأتيت إلى هذا المكان!

لم أره بغيضًا كهذا من قبل، لا أريد المكوث فيه أكثر من ذلك فهو ببساطة

obeikan.com

يُذكرني به وقد عاهدتُ نفسي أن أنساه مُحاولةً مني لإحياء نفسي من جديد.

الحل الوحيد في نسيانه.. أمامي حياة لأحياها بدونه.

من الآن عليّ أن أقتنع أنه لن يعود وأني أقوى مما كنت عليه وهو معي ... على الأقل لن أحتاجه بجانبي.

ما الذي سيضيرني بعد رحيله؟ على العكس.. من الآن فصاعدًا سأكون أكثر قوة من ذي قبل.. لم يكن وجوده يعنيني في شيء وكل خطواتي القادمة ستثبت ذلك.

ودخلتُ المكتب ووجدتُ الأستاذ مشغولًا بالحديث في الهاتف ثم استأذن في الخروج لدقائق فكظمتُ غيظي وجلستُ أنتظر.

كانت فتاة جميلة بالداخل..

بل إنها آية في الجمال قسمات وجهها تنطق بالبراءة، وتبدو في السابعة من عمرها على الأكثر دُهشت عندما قالت لي إنها في الحادية عشرة من عمرها.

هدأت ابتسامتها الصافية من روعي وأخذت ألاطفها وألاعبها.

قالت بصوت خافت:

اسمي "تسنيم" وعمو يبقى خالي. -

وكدتُ أقول لها وأين هو خالك الآن؟ ألم يطلبني.. فليُنهي مكالمته سريعًا

وليقل لي ماذا يريد عليّ أن أعود إلى أمي. ..

وحاولتُ أن أكسر الملل، وبدأتُ في الحديث معها مجددًا.

أخبرتني عن حبها للمواد العلمية ومعاناتها مع مادة الدراسات التي تكرهها، وظلت تبوح بما في داخلها حتى توقفت قليلًا وقالت:

- أنا نمت إمبارح معيطة.. عشان كده خالو جابني هنا.. أخويا الكبير ضربني قبل ما أنام عشان مسكت موبايله.. بس عارفة ماما معملتلوش حاجة..

قلت لها:

عارفة إنتي..

ولم أكمل.. شرعتُ في البكاء..

انهارت القوة التي ادعيتها لتوي قبل دخولي هذه الغرفة.

أقصر مدة ادعاء في تاريخ البشرية!

قصصتُ عليها كل ما حدث، كلامه، نظراته، ليس في البارحة فقط بل منذ أن تحول تمامًا، وكنت واثقة أنها قد لا تفهم كل ما أقصه عليها، ومع ذلك لم أتوقف عن الحديث.. عن الشكوى بمرارة.. عن رغبتي في أن أراه بجانبي الآن.. أمسك يديه بقوة وأتعلق بذراعيه ليزجرني كعادته ويرفع صوته صارخًا.. فيأتي صراخه أحلى من أي موسيقى سمعتها..

obeikan.com

وتأخر الرجل، وتركت الغرفة بعد أن احتضنت "تسنيم" واعتذرت لها.. ماذا جنت كي تستمع إليّ.

وقبلتني بحنان كنتُ في أمس الحاجة إليه ثم قالت برقة:

- على فكرة، أنا كنت شايفاكي من الشباك قبل ما تدخلي هنا وضحكت عليكي.

للدرجة دي شكلي كان.. -

وقاطعتني:

لا أنا بس لقيتك بتكلمي نفسك. -

وضحكت وأنا أقول:

لا يا حبيبتي .. أنا بس كنت بقول إني هكون كويسة. -

ولم تفهم، مثلما لم أفهم أنا إلى متى يستمر صمودي المزعوم؟!

ولم تُتح لي فرصة التفكير أو الفهم.. هرولتُ مُسرعة من مكتب الأمن بعدما رن هاتفي..

حادثتني "خالتي"..

لم يكن رقمها مُسجلًا عندي ولم تكن عادتي الرد على هذه الأرقام، ولكن

obeikan.com

منذ ابتعد وأنا أكاد أكسر شاشة الهاتف كلما حاولت الرد لعله يكون هو..

وقالت في صوت هادئ:

- "دعاء" في المستشفى.. في العناية المركزة دلوقتي.

أيمكن أن تموت الآن؟! أتكون النهاية بهذه السرعة؟

يا الله.. أهناك ذنب قد اقترفته أستحق أن أُعاقب عليه إلى هذا الحد؟

وتباطأت خطواتي أكثر وأكثر، لم أكن أريد الوصول.. يُشعرني قلبي أنه في حالة وصولي سأتلقى النبأ المزعج على لسان أحد الأطباء.

أو على لسان هذه المدعوة "خالتي"..

نبرة صوتها مُثيرة للاستفزاز.. كأن التي ترقد في العناية ليست بأختها من الأساس.

وصلت ودلفتُ للداخل وأنا واثقة أن صوت دقات قلبي المرتفع يُزعج المرضى في أسرتهم.

رأيتها بالفعل..

وأشفقتُ على هؤلاء الأطباء المُلتفون حولها.. لا يعلمون أن محاولاتهم بائسة تمامًا..

هذه السيدة الراقدة أمامكم الآن "دعاء عادل" لا تُعاني من مرض عضوي قد تُفلح محاولاتكم في علاجه، بل إنها في حاجة إلى خبير نفسي أو مصحة

obeikan.com

نفسية بأكملها تقص عليهم ما حدث وتنتظر حلًا يُقدمه لها أحدهم.

"دعاء عادل" ما كابدته في حياتها حتى قبل وفاة أبي لم يكن عاديًا.. يكفيها صدمة وفاة الحبيب قبل الزوج قبل السند.

كان دائمًا ما يقول "الحب دعاء".. "الحب هو إنتِ".

أين هو الآن؟ لو كان يحبها كما يزعم وكما تُفصح نظراته في الصور القلائل التي جمعتهما سويًا لما مات.

واستغفرتُ الله..

موته جر علينا الكثير والكثير.. الأموال الكثيرة التي تركها لنتنعم بها لم يظفر بها إلى الآن سوى أخي.

تحملته أمي كثيرًا في الفترة الماضية..

وكانت نتيجة تحملها وصبرها هو تلك الليلة التي ظللتُ ألقي فيها على وجهي بالمياه بعنف، كي أتأكد أني لا أحلم.

الابن يقول لأمه التي تستحثه أن يُركز في دراسته من أجلها ومن أجل أمواله.. فقط .. تطلب أن يمر العام الدراسي الأخير له دون رسوب أو تأجيل فيخبرها عن جهله المصدر الذي استطاعت به جمع هذه الأموال، التي تضعها لحسابنا في البنك.

هل جُن؟

obeikan.com

هل صدق الهراءات التي قالها أعمامي.. هم جهلة، فلاحون، لم يدخلوا مدرسة حتى..

ما إن مات أبي ورفضوا أن تعمل أمي.. حاولت إقناعهم أن دخولنا أنا وأخي مدارس حكومية بعد قضائنا نصف المرحلة الابتدائية في مدارس اللغات حرام.

اعتبروا أن الحرام هو خروجها للعمل في الليل في مكتب محاماة و....

أخرجتني "خالتي" من أفكاري.. وجدتها تطلب مني الأموال التي دفعتها للمستشفي.

ألم يكن من الأجدر بها أن تنتظر قليلًا أو أن ينتظر شيطانها قليلًا.

كانت جملة سمعتها في أحد الأفلام ولا زالت محفورة في ذاكرتي..

أثق بالجميع، لكن لا أثق في الشيطان داخلهم".

مسكين من قالها!

لم يأتِ إلى هذا البلد وهؤلاء الناس مدعو الفضيلة.. تُرى ماذا سيقول وقتها؟!

Openkan.com

الفصل السادس

بنك مصر - فرع الدقي

لا أعلم تحديدًا المبلغ الموجود هنا ولم آتِ إلى هذا المكان يومًا.

أمي كانت تتولى كل شيء، وكان هذا جزاءها من فلزة كبدها..

أعطاني العامل الرقم الخاص بي وما هي إلا ثوانٍ وبدأ الملل يصيبني.. لا زال أمامي أشخاص كُثر.. لن أطيق كل هذا.

الطاقة، الاحتمال، الصبر".."

كلمات لم تعد في قاموسي وخصوصًا الأولى.. أفتقدها بقوة ولكن أنى لي بها؟

وأردتُ أن أنهي ما أنا فيه سريعًا، حتى ألقي الأموال في وجهها وأنقل أمي من المستشفى وأبتعد..

لا أريد أن أرى وجه هذه السيدة مرة أخرى.

ولكن، كلماتها لم تكن جارحة.. ربما هي تحتاج المال بالفعل كما أنه من غير الملزم عليها أن تتكفل بمصاريف علاج أختها، خاصةً وهي تعلم أن حالتنا المادية متيسرة.

وخرجت من البنك للتجول في شوارع هذه المنطقة.

أتيتُ إلى هنا مرات عديدة، بالطبع ليس بقصد البنك ولكن أتذكر زياراتي المتكررة إلى هنا للذهاب إلى المكتبة.

كانت أمي تحرص على المداومة على الذهاب للمكتبة وقراءة كل القصص التي تقع عليها عيناها وخاصة قصص اللغة الفرنسية.

وسألتُ أحد المارة عن مكانها فأشار بإصبعه إلى الشارع المجاور.. وضحكت لقد فهم بسؤالي عن المكتبة أني أريد مكتبة لبيع الأقلام والأدوات المكتبية.

وبدلًا من العودة إلى البنك ظللتُ واقفة أتأمل اللافتة الكبرى "مكتبة الكوثر"، وأتأمل أيضًا الورقة المُلصقة على زجاج المكتبة..

مطلوب آنسة للعمل).)

ورجعتُ بالذاكرة قليلًا إلى الوراء..

كثيرًا ما سألت أمي عن سبب التصميم الغريب للمحال في أن تكون العاملة آنسة.

جذبني الإعلان بالفعل، ودلفت للداخل وسألتُ عن الشروط ثم عدتُ مسرعة إلى البنك كي أسحب الأموال وأردها إلى هذه المرأة على وجه السرعة.

لا أعلم أي شيء عن الإجراءات وظللتُ أنظر للموظف في غيظ..

أطال النظر إلى البطاقة ثم ابتسم وقال في هدوء:

- مينفعش.. لسه شهرين!

ولم أفهم، فسألته:

- شهرين على إيه؟

- عندك ٢١ سنة إلا شهرين، لسه قاصر.

وأكمل أن دفتر التوفير هذا لا يمكنني على الإطلاق السحب منه، وأن والدتي فقط هي من تمتلك الحق في سحب الأموال.. أما الإيداع فمن الممكن أن أقوم به بكل سهولة.

أخبرته بأنها طريحة الفراش وأني لن أستطيع الانتظار فأكد لي أنه القانون، وفي حالة وفاة الأم - لا قدر الله - لن أتمكن من سحب الأموال أيضًا إلا بعد إتمامي الواحد وعشرين عامًا أو هناك حل آخر..

وسألته بسرعة:

- ما هو؟

- أخ أكبر أو واصي، وده المحكمة هي اللي بتقرره.

وقمتُ مسرعة أفكر فيما قال..

obeikan.com

من المستحيل أن تقتنع "خالتي" بما قال.. عليها أن تأتي معها كي تُصدق!

لن تنتظر شهرين كي أعطيها المال.. أنا على استعداد لكتابة إقرار أني مدينة لها بهذا المبلغ الذي دفعته.

ولكن، السؤال الأهم.. كيف سأقضي هذه الفترة؟!

وسرتُ على غير هدي، أحاول أن أتحكم في دموعي التي لو أذنت لها أن تسيل لما توقفت..

لا بد من حل لهذه المشكلة، ودخلت إلى محل الصائغ الموجود بجوار المحطة ولم أسأله عن شيء، كل ما فعلته أني خلعت خاتمي بعنف من إصبعي وكذلك القرط الذي أهدته لي أمي بعد نجاحي في المرحلة الإعدادية، واستأذنته قبل أن يأخذ هذه الأشياء أن أقوم بتصويرها بالهاتف.

أخذتُ الأموال وعدتُ للمترو كي أعود للمستشفى بسرعة.

وتقبلت "خالتي" الأموال كلها، وقالت في هدوء:

أنا مش هعد وراكي يا حبيبتي. -

كان عليّ أن أبتسم في وجهها.. الأمر الأكثر صعوبة هو ما اضطررتُ له بعد نحو أسبوع.

كان عليّ أن أحاول "تنظيم وقتي"، الكلمة تدعو للشفقة.. في الصباح أذهب للكلية، وفي المساء أذاكر وبحلول الليل أذهب إلى المستشفي لزيارة

أمي عائدة من المكتبة.

أرتدي الآن ملابسي وأستعد للذهاب إلى المكتبة.

أبذل ما في وسعي، ومع ذلك يخبرونني بأني بطيئة في البيع والشراء..

معهم كل الحق، فأنا لم أعتد أن أقف يومًا في مكان كهذا، ولم أكن أتوقع أن الأيام ستجبرني على العمل لأجل اكتساب قوت يومي.

obeikan.com

الفصل السابع

قرية شهرزاد - محافظة الإسكندرية

أيام عصيبة مرت.

حتى هواء هذا المنزل خانق وأركانه مظلمة.. لم أعد أزور أمي.. أكتفي بدعائي لها ودعائي لنفسي.

أنا بالفعل في حاجة ماسة إلى الدعاء أكثر منها وأكثر من أي أحد!

يكفي هذا المكان، تحولتُ إلى آلة كي أنال إعجاب هذه المرأة وزوجها وأولادها..

الحياة مع هؤلاء أشبه بالموت البطيء ..

كلمتها مرارًا.. من غير المعقول أن أستيقظ يوميًا في الخامسة صباحًا للذهاب للجامعة وفي منزلي كنت أستطيع الاستيقاظ قبل المحاضرة بنصف ساعة.

أحتاج بالفعل للراحة، خاصة أنها لا تعلم أني أقضي جزءًا كبيرًا من اليوم في العمل في المكتبة بل وأكثر من ذلك..

أحتاج إلى غرفتي التي اعتدتُ عليها كي أنعم فيها بنوم هانئ، ولو ليلة

obeikan.com

واحدة.. أحتاج إلى الحديث كي لا أختنق.

تُرى أين هو الآن؟ هل هو بخير؟

عاهدتُ الله ألا أتصل به.. هل أفعلها؟ أقول له فقط كيف آلت أمي إليه، وأغلق الهاتف وأترك له الفرصة في اختيار ما يفعله.

التردد.. التردد.. ملعونة هذه الحيرة التي تمنعني من اتخاذ القرارات الحاسمة في حياتي.

وكتبتُ الجملة ذاتها قبل أن أنام.. أكتبها مع اختلاف الصيغة وأغمض عيني.

وأستيقظ وأستعد لرحلة الشقاء "الكلية".

ما أبشع أن يتحول حلمك إلى كابوس، بالأمس القريب كان هذا المكان جنة الله على الأرض بالنسبة لي، بل إني كنت أتعمد المكوث فيه حتى بعد انتهاء المحاضرات.

أما الآن فأجتهد.. كلي أمل أن تفتح أمي عينيها وتجد التقدير ذاته الذي كافأتها به في الفصل الدراسي الأول.

تُرى هل بالفعل تقديري فيه راحة وشفاء لها؟! قطعًا لا..

ولكن، "كم لله من لُطف خفي"، كانت أمي كثيرًا ما تقولها..

أن تكون المكتبة قريبة من الكلية، ولكني بالفعل ضقت بكل ما يحدث.

obeikan.com

الكل يُجبرني علي عدم احترامه، ويؤكد لي أن حالنا لن ينصلح طالما نفكر بهذه الطريقة..

أهو فجور ناتج عن عدم استشعار مراقبة الله لنا أم ما هو السبب؟!

اخترتُ هذا الموضوع عامدة.. وحاولتُ إجبار زملائي في الكلية على الرضوخ لطلبي وإجراء البحث المتعلق بهذه القضية.

كان هناك من يعترض، ولكن صورة الفتاة والتعليقات أجبرتهم على الموافقة.. أرغمتهم على الاقتناع أننا وصلنا لحالة ميؤوس منها.

كان دائمًا ما يردد أمامي: "قلتنا أحسن"..

ماذا لو قلتُ لهم ما يحاول صاحب المكتبة يوميًا أن يقوم به، وكيف أكظم غيظي.. أو لا أدري ما هو المُصطلح الأنسب.. لنقل أني أمنعه من مجرد التفكير في الأمر.

هذا الأربعيني المتزوج.. الذي أخبر "كريم"، الذي يعمل معي ذات مرة أنه أخطأ في حساب مرتبه وعليه أن يذكره بالمال كي لا ينساه..

قالها بملء فيه:

أنا مدخلش لجوف عيالي لقمة حرام وده حقك يا ابني! -

انطلقتُ في نوبة من الضحك الهستيري وأنا أتأمل هذا النموذج، لا يسمح لنفسه أن تمتد يداه على أموال ليست من حقه.. أما نظراته التي تُميت

وتجلد وعيناه واقتحامهما.

كانت عيناه تنطق بالشهوة ولم أهتم.. كنت أتوقع الأسوأ رغم تأكدي من أنه لا يوجد أسوأ مما حدث.. أشار مرة إلى المخزن الخلفي ففهمتُ ما يعنيه.

وابتسمت في أسى.

فكرت مرة أن أخبر "كريم" برغبتي في العمل في نفس المدة التي يعمل فيها.. كي لا أقضي مع هذا الرجل وقتًا نكون فيه وحدنا، يسمعني فيه كل خمس دقائق دعوة جديدة لتجربة شيء.. تجربة!!

ولكن "كريم"..

لماذا وثقت به؟!

لا أدري ربما لأني وجدته مختلفًا بعض الشيء.. في المرات القليلة التي تحادثنا فيها وأخبرني عن مرض أمه، وعن موهبته في لعب الكرة والظلم الذي تعرض له في الأندية التي لم ترض به لاعبًا بين صفوفها.

كلانا ظُلم وكلانا مُجبر على العمل في هذا المكان وكلانا..

ولكني أتساءل بالفعل كيف وثقت به وفكرت مجرد التفكير في مصارحته بشيء كهذا؟

الأجدر بي الآن أن أنتبه لكل ما يدور حولي جيدًا.. كل ما يحدث يُؤكد لي أني مُحاطة بمجموعة من الأقذار تُحركهم شهواتهم.

أخبرتني بذلك (الكوافيرة) عندما ذهبت لها مؤخرًا.

حسبتني عروس جديدة ولم أعلق.. ابتسمتُ الابتسامة ذاتها التي أصبحت ردي على الجميع..

"مطلوب بائعة حسنة المظهر".

الجملة التي جعلتني أذهب إليها لأرى ماذا ستقوم به، وهل ستنطبق علي المواصفات وأستطيع العمل في المكتبة أم لا؟

ونجحت في مهمتها..

كدت أثق فيها هي الأخرى وأقص لها سبب زيارتي لها، وأني فقط في حاجة للعمل مدة قصيرة.. لأحصل على الأموال بعد شهر من الآن.

ثقتي باتت سريعة! هذه المرأة في البداية تبعها "كريم" والبقية تأتي..

لم أعد في حالة تسمح لي بالتفكير إن كانت ثقتي في بعض الناس في محلها أم لا..

الشخص الوحيد الذي كشفته عيناه منذ الوهلة الأولى هو الأستاذ "وائل".

أستاذ! لقب لا أدري كيف مُنح له؟

منذ اللحظة التي مد يده فيها بالسلام وأدركتُ جيدًا ما وراءه.. حتى صاحب المكتبة لم يظهر وجهه القبيح إلا بعد أيام من العمل.

ولكن "وائل" هذا!

obeikan.com

"أنا فخور بيكي جدًا يا آنسة يمنى".

بداية ذكية.. هو بالفعل علي حق.. لو كانت الظروف عادية لكان لعبارته هذه أثر مختلف تمامًا.

واسترسل:

- نموذج مشرف.. لو كل الناس تعمل كده.

واعتذر لاستقبال مكالمة هاتفية، وصلت إلى أذني بعض الأصوات..

مش قلتلك.. تلميذك"."

وعاد مرة أخرى.

- نتفق بقى ع التفاصيل.

- تمام هكلم، حضرتك في التليفون.

أي وقت. -

قالها أكثر من خمس مرات في الدقيقة ذاتها، ومد يده مصافحًا فاعتذرت وابتسم بهدوء وعيناه تُطلق لغمًا، لا شك أنه تبعني في طريق عودتي.

ولم أكترث، لم تكن عيناه وحدها هي التي تضايقني.

ربما القدر الذي يصب لعناته عليّ والفشل الذي لم يبرحني.. تحاول "خالتي" إقناعي بأنه حسد

obeikan.com

يا لتفكير هذه المرأة!

لم أجادلها .. اقتنعتُ بمبدأ السمع والطاعة بعد الموقف الأخير الذي جمع بيننا.

ذكرتني بـ"حسين " صاحب المكتبة وبكل من أصر علي إقناعي أننا منافقون بدرجة امتياز.

تكبدت عناء الذهاب لمحل واستغرقت رحلتها في الذهاب أكثر من ٧ ساعات، ولكنها أبت إلا أن تعيد إليهم ما اشترته ولم تُحاسب عليه.. كرة شاطئية!

حاولتُ أن أنسى هذا الموقف..

أن أتجاهل تصرفها وإصرارها على إرجاع الكرة ونهرها أولادها الصغار، لو حاول أحد منهم لمس الكرة أو الاقتراب منها.

عجبًا.. أهذا حرام؟! و ما تقوم به إزائي ألا يُعد حرامًا في شرعها.

كدتُ أنساها ولكن رأيتُ الكرة أمامي الآن.. يلهو بها طفلان على الشاطئ.

الحر قائظ هذا العام، مما دفع المصطافين للهرب من ازدحام القاهرة والسفر إلى الإسكندرية.

الغاية تختلف، هم هنا للنزهة وأنا هنا لإتمام عمل خاص بالكلية!

نصحتني "خالتي" بالاستجمام قدر المستطاع قائلة:

openkan.com

- يا بنتي لازم تغيري جو.

ظننتها مريضة وكدتُ أسألها عما بها!

كان باب شقتها مفتوحًا على مصراعيه، وأدركتُ أنها فقط قالت ذلك لأن جارتها تستمع للحوار الدائر بيننا، هذه المرأة حادثت أمي بعد إعلان نتيجة الثانوية العامة بيومين فقط.

قالت لها نصًا:

- إحنا مش هنلاقي أحسن من الأولى ع الثانوية العامة ناخدها لابننا!

وتسببت جملتها في سيل من الشتائم اندفعتُ في إلقائها، ولكنها هي السبب.. ما ذنبي أنها تفكر بهذه الطريقة وأن اختيارها لزوجة ابنها المثالية فقط لأنها متفوقة دراسيًا متجاهلة كل الصفات الأخرى؟

ولم تتأخر جارتها في الرد:

ربنا يكرمك زي ما إنتِ كرماها. -

وضحكتُ.

هذه القرية كانت اختيارًا مثاليًا من زملائي.. لن نتأخر في إنجاز مهمتنا.

بالفعل محظوظة هذه البلد بقدرات أبنائها!

كان من الممكن تطبيق المثال الذي شُرح في المحاضرة على أي مكان في القاهرة، ولكن الإصرار على النجاح والخروج عن المألوف.

obeikan.com

لم أكن سآتي معهم.. لا أملك الأموال اللازمة وطلبت منهم الانتظار فقط أسبوعين حتى تنتهي فترة البنك ولكن رفضوا.

واستأذنتُ من "صاحب المكتبة" مُتغاضية عن الكلمة التي كررها أكثر من مرة بأنه سيشتاق إليّ وأن المكتبة سُتظلم بدوني وربما يمتنع الزبائن عن دخولها وشراء أي شيء لحين عودتي.

التعبير لزج كقائله.

وحاولتُ عبثًا النظر للقرية والتركيز في المهمة المطلوبة مني.

ولكن، مهما اجتهد الإنسان في نسيان مشاكله والتركيز في حياته العادية فمن الصعب بل من المستحيل.

حتى هذا البحر لم تعد النظرة له كافية!

obeikan.com

الفصل الثامن

شارع رمسيس

طريق العودة من الإسكندرية للقاهرة لم يخل من مناقشات زملائي عن خطوتهم القادمة بعد فحصهم للقرية، واختيارهم لها كنموذج سيعملون على مُحاكاته.

الطريق الذي كان الملل رفيقي الوحيد فيه هو طريقي إلى "هيثم" في (أبو الغيط).

لم أره منذ كنت طفلة في المرحلة الابتدائية تقريبًا، استقبلتُ النبأ الذي أعلنه لي في الهاتف أن زوجته "همت" على وشك وضع مولودهما الأول بفرحة حقيقية.

الأيام تمضي سريعًا.

سائق العربة لم يُوقف هذه الأغاني منذ بداية الطريق، وقال بصوته المنفر:

يا آنسة.. المترو كان أسهل والله. -

- ما قولتلك هديك كل اللي عايزه!

اللي أنا عايزه.. قالها وهو يضحك ويُشعل سيجارة جديدة. -

فأسارع إلى هاتفي وأتصل بـ"هيثم" للمرة الخامسة وأتعمد رفع صوتي فتعلو ضحكات السائق أكثر وأكثر.

يا الله.. كل ما يحدث لحكمة منك ولا شك، أقر بهذا بكل جوارحي.

حكمة لا يعلمها سواك ولن أفهمها ولا أريد فهمها.. فقط أريد راحة قلبي مما أنا فيه..

عدتُ من الإسكندرية في السادسة مساء..

وصلنا مبكرين كذلك اشترطت على "خالتي" قبل السفر (العودة المبكرة قبل الثامنة) وها قد عدتُ في السادسة.

قررتُ الذهاب إلى منزلي.. أشتاق إليه بالفعل حتى لو ستكلفني زيارته آلامًا ترتد على قلبي لا رحمة فيها.

وحاولتُ فتح الباب ولم تُفلح محاولاتي!

الأصوات تصل إلى مسامعي وأنا لا أفهم ما الذي يدور حولي، وظللتُ أبحلق للرجل الذي فتح ونزلتُ مهرولة.

أحقًا ما حدث؟!

سألتها وردت بتلقائية:

- عارفة يوم واحد في العناية بكام؟ ده أنا مرضتش أشغلك وقلت أنا أشوف الموضوع وإنتي تركزي في دراستك.

obeikan.com

وذهب كلامي مع الريح، ذكرتها بوعدي لها أني سأرد لها كل هذه الأموال، كما أني أتحمل كل مصاريفي الشخصية حتى الطعام أنا الذي أتولى مسؤولية إحضاره ولكن..

دلفتُ إلى الغرفة، قبل أن أنام حيث موعد الطقس المعتاد الذي أُداوم عليه وإن لم يكن له وحده هذه المرة، بل لي أنا أيضًا!

واستيقظتُ في اليوم التالي وأسرعت لـ"حسين" صاحب المكتبة، لم يكن قد أتيى بعد وظللت أبكي وأنا لا أجرؤ كيف أخبره بما أريد..

وسألتُ "كريم" وامتنع عن الرد.

كنتُ على حق حينما فكرت مرارًا ومنعتُ نفسي عن الوثوق به، كان من الممكن أن يرد الآن أن يُريح قلبي وهو يراني أحادثه بدموعي، بل إنه كان من الواجب عليه، ومع ذلك التزم الصمت.

وجاء "حسين" وقال في لهفة:

ميه بسرعة يا "كريم".. اهدي يا "يُمنى" وأنا هحل كل حاجة. -

واقترب مني فزاد توتري وخوفي من عجزي عن الصراخ في وجهه ككل مرة حاول فيها.

عرضت عليه الأمر بسرعة لعله ينتبه إلى ما أقول وينسى ولو للحظة ما يُسيطر عليه دائمًا، أخبرته أني أريد منه مائتي جنيه، ولو على سبيل الدين

وما هو إلا أسبوع وأعيد له المال.

فأجابني بصوت رخيم:

- حضرتك.. متقوليش الكلمة دي هو أنا غريب؟

وحاول الاقتراب ثانية، وزاد انهياري وأشرتُ للبنك وأقسمت له أنه وبعد ٧ أيام فقط سأبلغ السن القانونية وأخرجت دفتر التوفير من حقيبة يدي كي يشاهده ويصدقني.

وجاء "كريم" بكوب الماء فلم أمسه، بطني كاد ينفجر وتقيأتُ على الأرض ولكني قمت بسرعة هستيرية وتحاملت على نفسي قائلة:

أنا هنضف الأرض بسرعة عشان لو زبون جه. -

وبنفس الهدوء والصوت الواثق:

بلاش تتعبي نفسك عشان لما تروحي للدكتور. -

- مش هروح، أنا بس عايزة الفلوس.

مفهوم، بس أنا أسمع إن العملية بأكتر من الـ ٢٠٠ جنيه بكتير. -

وبحلقتُ في وجهه وبصقت في الأرض وخرجت.. عجزتُ عن الرد.. عجزتُ حتى عن التصديق أنه يفكر بهذه الطريقة.

أتاني صوته من بعيد وهو يقول لكريم ضاحكًا:

- كليات إيه بس.. يعملوها ويجولنا..

وأفقتُ من شرودي..

"هيثم" هو من يتصل هذه المرة، وأعطيتُ الهاتف للسائق مسرعة وقد اطمأن قلبي قليلًا وسألته عن الوقت المتبقي فأجاب:

مش كتير.. خلاص ١٠ دقايق. -

وصلنا أخيرًا.

كان جسدي يؤلمني، وقدماي لا تكادان تحملاني والجوع يُمزق أحشائي.

استقبلتني زوجته بالترحاب، كلمات كثيرة انطلقت ترددها وأنا لا أعي حرفًا مما تقول:

- أنا حبيتك أوي، "هيثم" كلمني كتير عنك، أنا دبلوم تجارة بس بنتي إن شاء الله هتدخل نفس الكلية اللي دخلتيها بس معلش بقى تدخلها عربي مش هتعرف تكون فرنساوي زيك.

لو كانت الظروف عادية لصرختُ في وجهها أنها تفكر بطريقة خاطئة، وأن من يُجبرون أولادهم على الالتحاق بكلية معينة فهم يستحقون الإعدام بالرصاص في ميدان عام، ولكني اكتفيت بالرد عليها بصوت واهن:

- خير إن شاء الله.

فتابعت بنفس السرعة التي كانت تتحدث بها في البداية:

obeikan.com

- "هيثم" حكالي برضه إنك كبيرة شوية، ولا يهمك.. مش مشكلة.. أنا أصغر منك بسنة بس موصلتش لربع اللي إنتِ وصلتيله الله أكبر عليكي.

واستأذنتها أن نكمل حديثنا بعد أن أنال قسطًا من النوم.

كعادة الفلاحين الكرماء أقسمت أن أتناول طعامًا أعدته خصيصًا وقضت يومها كله في تحضيره، رغم أن الطبيب أمرها بالراحة التامة.

وعاتبت "هيثم" قائلة:

- مش معقول بنت عمك مشوفهاش إلا دلوقتي.. أنا صحيح شفتك في التليفزيون أكتر من مرة كنتي زي القمر ما شاء الله.

ودخلت الغرفة التي أشاروا إليها وعجزت عن النوم.

"الخوف، الإرهاق، الصدمة"، طوال الطريق مع هذا السائق المزعج وأغانيه السيئة التي أجبرني على الاستماع لها وأنا أفكر في الطريقة التي يُفكر بها هؤلاء الناس.

كيف سولت لها نفسها أن تؤجر الشقة دون حتى أن تُخبرني؟!

أحمد لله أن رقم "هيثم" كان معي على الهاتف، لن أقضي ليلة واحدة في منزل هذه السيدة، الموت أهون عندي من النظر في وجهها مرة أخرى.

أتساءل عن سر هذه الدنيا وغرابتها وعن هؤلاء الناس والطريقة العجيبة التي يُفكرون بها..

obeikan.com

نسيت أن أسأل "هيثم" عن والده!

في فترة من فترات طفولتي كنت أستمع إلى أمي كثيرًا ما تُردد:

"حسبي الله و نعم الوكيل فيك يا عبد العاطي .. منك لله".

عندما كبرتُ أخبرتني أنه بعد وفاة أبي أجبر أمي أن تسحب أوراقي أنا وأخي من "مدارس الكفار" هذه.

كيف فكرت أن تُلحقني أنا وأخي بمدرسة بداخلها كنيسة، وكذلك أخي حتى إنه أخبرها بعد برهة أنه لا يمانع من بقاء أخي، أما أنا فمن رابع المستحيلات.

وعندما أصرت على رأيها كان "وضع اليد" هو طريقته المُثلى فاستولى على أموال أبي كلها ليمنعها من دفع مصروفات المدرسة.

وبالفعل، تسنى له ما أراد ولكن نجحت أمي في إعادتنا لهذه المدارس بعد جهد مُضنٍ.

أهو حي؟! أستحي أن ألقي على "هيثم" هذا السؤال.

الساعة الرابعة فجرًا، مرت ساعتان على وصولي إلى هذا المنزل.. صورة زفافه مُعلقة مع زوجته على حائط الغرفة.

هي بالفعل جميلة وابتسامتها الصافية تنم عن طيبة، عندما احتضنتني فور وصولي شعرت بشعور غريب.. على قدر احتياجي له على قدر خوفي من...

وسمعت صوتها يعلو:

- لا يا "هيثم"! أنا مش هرضى بكده.

القدر يتفنن في توجيه الطعنات لي.

بالتأكيد ترفض بقائي معهم في المنزل.. من حقها.. ربما لو كنتُ مكانها لما وافقت بضيفة ثقيلة تأتي إلى منزلي بعد منتصف الليل بساعتين، ولكن لماذا لم تُصارحني؟

لماذا يُنافق الناس؟ كان من الممكن أن تستقبلني ببرود فأفهم أن وجودي ليس مرغوبًا فيه في هذا المكان، بدلًا من استقبالها الحار والحفاوة التي قابلتني بها.

و لم أحاول استراق السمع لرد "هيثم" كل ما حاولت فعله هو أن أنام.

لم أشعر إلا بيد تُحاول إيقاظي وانتفضتُ مذعورة.. من غير المعقول أن يكون هو...

وكانت "همت"!

عيناها تفيض بالدموع.. حاولت أن تخفيها قدر ما استطاعت وسألتها إن كانت مُتعبة من أثر الحمل وإن كان بإمكاني مساعدتها؟!

قمت مُسرعة، تذكرت نصيحة أخبرتني بها أمي.. قاطعتني:

- كلام والدتك صح، ربنا يخليهالك يا رب وألف سلامة عليها إن شاء الله

obeikan.com

وتشوفك بالفستان الأبيض قريب.

وسكتت..

إذن، لماذا توقظني.. لماذا تبكي؟ هل تظن أني على استعداد للتفكير في هذه الألغاز؟

وقالت:

"أبو هيثم" رافض إنك تقعدي معانا.. هو بس اتضايق لما عرف إن إنتِ جيتي الساعة كام.. بس

أنا قلتله إن المواصلات أكيد أخرتك.

ونظرتُ لها ولم أجد ردًا مناسبًا، حمدًا لله إني لم أغير ملابسي حينما نمت كي لا أتكلف عناء تبديل الملابس.

وقلت لها:

- أنا نازلة حالًا.

وبكت، أعطتني مظروفًا وأقسمت لي أنها لا تقدر على أكثر من ذلك..

وحاولت احتضاني مرة أخرى فمنعتها.. فقالت:

- الحج هو اللي ليه الكلمة هنا.. هو قال إنك جيتي مع سواق لوحدك.. هو كمان شايل من والدتك شوية.

obeikan.com

ولم تكن هناك جدوى من معرفة باقي أسبابه حتى عندما أخبرتني أنهم حادثوا "خالتي" هاتفيًا وسينتظرني زوجها في "موقف السيارات" في (شارع رمسيس) لم أعلق، لم أعد قادرة حتى على إظهار الغضب، وتملكتني حالة من الاستسلام!

وأخذتُ الأموال ونزلت.

كانت السادسة صباحًا وفكرتُ في سماع نصيحة الأسطى هاني السائق، الذي رافقني في مشوار أمس، والذي اعترضت عائلة "هيثم" عليه!

وكأني تعمدتُ أن أركب معه بمفردي.. لم أكن أملك أجرة الركوب من الأساس وهو السائق الوحيد الذي وافق على إيصالي للمكان الذي أنشده وبعدها يأخذ حقه.

وكأنهم لم يفكروا مدى الخوف الذي تملكني أثناء ركوبي معه.

هذه المرة وركوب المترو توفيرًا للنفقات على الأقل. وفكرتُ في سماع نصيحته

لم أفكر حتى في أن أعرف المبلغ الموجود معي في الظرف!

ووجدته في الموقف "الأسطى هاني" فابتسم وقال:

- بسرعة كده؟!

وأشرتُ له بكلمة واحدة:

obeikan.com

- المترو.

- لوحدنا زي إمبارح ولا لما تحمل؟

اللي تشوفه. -

- شايف حاجة حلوة أوي.

ووصلتُ إلى "محطة الشهداء" عند مسجد الفتح كما اتفق "عمي" مع "خالتي" أتساءل لو نص اتفاقهم على إذلالي بهذه الطريقة؟!

الشارع يبعث على الرهبة.. أشعر وكأن كل من حولي يتفقون على شيء ما خاص به، وتملكني الخوف خاصة مع الجو البارد والشمس التي لم تظهر بعد إلا على استحياء.

وتحركت من مكاني مسافة قصيرة ونظراتهم تُحاصرني من كل زاوية.. أفكر جديًا في إعطائهم كل الأموال التي أمتلكها.

مهما كانت رغبتهم جامحة، وقد تدفعهم إلى أي تصرف، فمن المؤكد أن المال هو سيدهم وليست الشهوة.

الفصل التاسع

سايبر زيكا - بين السرايات

كنتُ في حاجة للحديث، للبكاء، للتخلص من الغُصة التي لم تفارق حلقي قط.

لم يُقاطعني، ظل مُصغيًا ترتسم على وجهه علامات الدهشة أحيانًا وعلامات الحزن أحيانًا أخرى .

الغريب أني لم أبكِ وأنا أقص عليه كل ما حدث..

في اللحظة التي أفقتُ فيها ووجدتُ نفسي في المستشفى ووجه هذه المرأة وزوجها أمامي.. وأدركتُ أني لا أزال على قيد الحياة.. حينها كادت جُفوني تتخلع من فرط البكاء، وكانت المرة الأخيرة.. حتى البكاء لم أعد أقدر عليه.

لم أبكِ وأنا أسحب الأموال من البنك، حيث ظن الموظف نفسه خفيف الظل وهنأني بعيد ميلادي..

ظللتُ أقص عليه كل ما حدث.

خلع النظارة وارتداها أكثر من مرة.. ربما لم يُصدق.. ظنني أبالغ!

obeikan.com

وسكت قليلًا ثم قال:

- يعني "مصطفى" أخوكي كان لازم يسافر؟ مكانش ممكن يستنى شوية ع الأقل؟

وقاطعته بسرعة:

- "مصطفى أخويا"!! لا يا زياد.. أنا أخويا اسمه "ياسين" مش "مصطفى".""

- بس إنتِ من أول ما بدأتي كلام مقولتيش غير اسم "مصطفى" مين "مصطفى" ده؟

ولم أدر كيف أجيب عن سؤال "زياد".. إنه بالفعل على حق.

من هو "مصطفى"؟

لا أعلم.. كل ما أعلمه أني أبعث له برسالة يوميًا.. أحكي له وأنتظر ردًا دون جدوى.. حادثته مرارًا والنتيجة واحدة!

ذات مرة، أتذكر ذلك اليوم البعيد بكل تفاصيله.. عندما تجرأ "صاحب المكتبة" ولأول مرة أسرعتُ حينها للجوء لـ "مصطفى" للاستنجاد به والاستغاثة.

ردت عليّ أخته الصغرى "أسماء" ووعدتني أنه سيكلمني ولم يفعل!

كل ما أعلمه..

obeikan.com

أني أردد دائمًا:

أن كل هذا ما كان ليحدث.. فقط لو كان "مصطفى" بجانبي.

ولم يُعلق "زياد"!

لا أنكر أن حديثي مع "زياد" واختياري له دونًا عن الجميع كان قرارًا صائبًا.

شعرتُ براحة أثلجت صدري وأنا أقص عليه كل ما أصابني..

تألمتُ حين سألني عن "مصطفى"... تألمتُ لعجزي عن الإجابة.. تأكدتُ من أن الوهم الذي تعلقتُ به كان سببًا في مُضاعفة آلامي.

تحدث "زياد" فجأة..

حاول أن يبتسم مشجعًا قبل بدء كلامه:

- أنا مقدر إنك استحملتي كل ده لوحدك، بس أنا مقدر أكتر إنك قوية وهتعدي اللي إنتِ فيه ده.

وصرختُ في وجهه..

يا "زياد" افهم.. القوة اللي كنتوا شايفنها دي كانت مُستمدة منه. -

فكرتُ لثوانٍ "القوة" ألا يراني جيدًا؟!

مرقت جملته كالسكين في قلبي..

أني تحملت هذا وحدي، وأن أحدًا لم يُحاول أن يكون إلى جانبي.. حتى

obeikan.com

"مصطفى" لم يُشاركني وهذا قطعًا ليس عدلًا..

وقمتُ بسرعة، وسألني "زياد" عن وجهتي فأخبرته بأني سأحاول أن أكلم "مصطفى"، فقلت له بهدوء:

يمكن يرد، وجوده يفرق.. -

- تفتكري؟

أهو أحمق؟! ألا يعلم أن وجود الرجل بجانب المرأة هو سر حياتها واستمرارها على هذا الكوكب

وقدرتها على أن تتحمل وتواجه.

عبرتُ الشارع ومرقت للمرة الأولى إلى مثل هذه الشوارع الضيقة والأزقة باستثناء زيارتي إلى

"أبو الغيط"، ولكن الظلام حال دون رؤيتي لتفاصيل المنطقة هناك، ومنذُ نعومة أظافري وأنا أقطن في حي خاص، حيث الشوارع الواسعة ولم أبصر مثل هذه الأزقة إلا في شاشة التلفاز أو في عيني أمي، عندما كانت تصف لنا مكتب المحاماة الذي تعمل به في الليل.

لم أخبر "زياد" بشأن ما قاله "ياسين" واتهامه الصارخ لأمي بأن عملها لم يكن مشروعًا ومن غير المعقول أن تجني كل هذه الأموال إلا لو كانت تعمل في مكان آخر..

لماذا لم تصفعه حينها؟! لماذا لم أحاول أنا؟!

الساعة الثامنة والنصف صباحًا، أغلب المحال لم تفتح أبوابها بعد، وظللتُ أسير حتى وجدتُ أمامي لافتة مكتوب عليها "سايبر زيكا".

وجلست أمام الجهاز.. فتحت الموقع الخاص به وبعثت له برسالة جديدة ولم يرد..

لحسن الحظ أن "زياد" كان معي، عرض عليّ أن أحادثه من هاتفه لعله يتعمد عدم الرد عليّ!

بالتأكيد عبث... لن أقوم بهذه الحركة الصبيانية.

وما هي إلا لحظات حتى أمسكت هاتف "زياد" بكل ما أوتيت من قوة واتصلت به.

الرقم كتبته في أجزاء من الثانية.. أحفظه كما لو كان اسمي ولم يرد.

وحمدتُ الله.. على قدر ما تمنيت سماع صوته على قدر ما دعوت الله ألا يرد.. لن أتقبل فكرة أنه لا يرد عليّ عامدًا.

وقال "زياد":

مش يمكن جراله حاجة! -

لا.. هو بخير إن شاء الله.

- إزاي؟

obeikan.com

عشان بتمناله الخير! صدقني هو لو كان موجود مكانش كل ده حصل. -

واستأذن "زياد" لحضور المحاضرة، وظللتُ في السايبر أنتظر، لا أدري إلى متى ولا أدري أيضًا إن كنت سأتحمل كلمات العامل أكثر من ذلك "فطار.. طب شاي.. لو هو مردش أنا موجود".

وكدتُ أترك المحل وأذهب إلى "سايبر" آخر ولكن ما الفائدة؟! النتيجة واحدة.

حاولتُ أن أصفي ذهني قليلًا.. أن أفكر في كلمات "زياد".

أشعر بالذنب حياله، ألقيتُ على مسامعه قصة لا ذنب له فيها وأعطيته جرعة من البؤس تكفيه سنة كاملة على الأقل.

ويئستُ من الانتظار ودفعتُ المبلغ الذي طلبه "العامل"، ونظرتُ إلى هاتفه وطلبت منه أن أستخدمه ورحب على الفور قائلًا:

- بس كده؟

واتصلت به مجددًا.. يكاد قلبي ينفجر... سمعت صوته!

كان نائمًا، وكررتُ الاسم مرات ومرات..

صوته هو الراحة، هو الدواء، هو الطمأنينة التي سرت في جسدي بعد أيام طوال من الأرق والألم.

- أنا في الساحل، في شاليه "هيا".

وأقسم أن خدمات الإرسال سيئة وأنه لم يقرأ الرسائل وأن "أسماء" لم تُخبره..

لم أترك له فرصة لإكمال جملته..

ألقيتُ على مسامعه كل شيء، لم أكترث بالعامل الذي أشار لي أني لا بد وأن أتحمل تكاليف المكالمة.

أخرجتُ كل ما معي من مال وأعطيته له دون أن أفكر في المبلغ الذي قد يأخذه.

منذُ حصلت على الأموال ولم تعد مسألة النقود تعنيني في شيء "لم أعد أخاف"، تأكد هذا الشعور بعد أن أنهيت المكالمة واتفقنا على حديث آخر.

وعدتُ للكلية لأحضر المحاضرة الثانية، لم أنتبه منذ بداية الفصل الدراسي الثاني إلى محاضرة مثل هذه.

مكالمة هاتفية لم تطل كثيرًا ولكن أسقطت عن كاهلي الكثير والكثير، أخبرتُ "زياد" بردود

"مصطفى"، الذي ردد مرتين قبل إنهاء المكالمة "أهم حاجة تبقى كويسة".

لقد تحسنت حالتي وأصبحتُ على ما يرام.

وعندما نلتقي مجددًا سأطيب من كل ألم وسيرتاح قلبي أخيرًا، سأنسى

العذاب الذي قاسيته في الأيام الماضية، التي أجبرتُ فيها على العمل للحصول على مال أقضي به احتياجاتي.

سأزجره أيضًا عن ذهابه لشاليه "هيا" تلك الفتاة التي أمقتها..

ماذا لو كانا وحدهما؟ كعادتها تستضيف أصدقاءها معها هناك ويقضون الأسابيع سويًا، ولكن لا يهم.. حتى لو كانا بمفردهما.. المهم أني سأراه قريبًا.

وانتهت المحاضرة الثالثة والأخيرة لهذا اليوم، وحادثتُ " الأستاذ وائل" وأخبرته أني موافقة على الظهور في حلقة جديدة وعليه أن يحدد الوقت وسأكون في الموعد.

أنا الآن في أفضل حالاتي ولا مانع من الظهور في حلقة من برنامج "نماذج مُشرفة".

وعدتُ للشقة التي أجرتها منذ ليلة أمس بعدما تركتُ بيت "خالتي"، وبعد وصولي تذكرتُ أنها لا تتوافر بها خدمة "الإنترنت" ونزلتُ مهرولة لـ"السايبر" أحادثه كما اتفقنا.. وعدني بالتحرك من مكانه والانتقال لمنطقة مجاورة تكون خدمات الإرسال فيها أفضل.

كدتُ أدخل "سايبر" صادفته في طريقي ولكن ما إن فتحت الباب حتى تراجعتُ خطوة بسرعة إلى الوراء..

المكان مُظلم ظلمة حالكة ورائحة السجائر كادت تُغشي عينيّ وسألت

صاحب المكان:

- هي الكهربا قاطعة؟

- لا.. إحنا بس بنطفي النور عشان الزباين تاخد راحتها.

وخرجتُ مسرعة وركبتُ "تاكسي" للذهاب إلى "بين السرايات" من جديد، هي خلية لا تنام.

ووصلتُ إلى "سايبر زيكا" وضحكتُ من شكل العامل الذي بدا مشغولًا تمامًا بالزبائن ولم يلحظني.

وحمدتُ الله، وجلست أمام جهاز الكمبيوتر.

وجدته قد قرأ كل رسائلي وكدتُ أبكي من فرط الفرحة وبدأ بالكلام:

- بس إنتي مقلتيليش كل ده في التليفون!

ولم أفهم قصده، وتابع يكتب بسرعة رهيبة:

مقلتيش إنك دلوقتي في شقة مع بنت لوحدكو، متعرفيهاش. -

وثار غضبي، وأوضحت له أني قمت باستئجارها منذ ليلة أمس فقط والفتاة لا أعرف عنها أكثر من أنها تُدعي "أروى" فأجاب:

- إزاي تعملي كده؟ إنتِ عارفة كويس أخلاق وسمعة البنات دول، إزاي ليلة كاملة، غلطانة طبعًا.

obeikan.com

ولم أصدق..

وكتبتُ مسرعة... إني سأتركها في الحال بل لنقل إني تركتها بالفعل يا "مصطفى"، أين سأذهب؟ هل أعود لـ"خالتي" مجددًا؟ مستحيل.

- شايفة إيه الحل؟

وأحضرت لي "أروى" المزيد من المناديل كي أجفف دموعي، راعها منظري وأنا أطرق الباب بعنف وأبكي وأحكي لها ما حدث دون حتى أن تسألني ولكني أخبرتها بكل ما حدث، موضحة أنه لم يعرض حتى المساعدة..

- "إحنا مش ممكن نتجوز دلوقتي".

اكتفى بهذه الجملة.. ولكن كيف؟ أهذا فقط ما جال بخاطره؟ ألم يتأثر بكل ما قلت؟

واحتضنتني "أروى" قائلة:

- طب هتروحي فين دلوقتي؟ هتعملي إيه؟ ممكن حياتك تكمل من غيره.

- حياتي!

أغلقتُ الباب ورائي ونزلت مُسرعة.

هذه المرة لم أتردد ولأول مرة، تخليتُ عن حيرتي الأزلية والصراع الذي يفتك برأسي قبل اتخاذ أي قرار.

الفصل العاشر

شارع رمسيس

أعبثُ في الهاتف وأقلب في الصور واستوقفتني صورة للأميرة "ديانا" كتبت هذه المرأة في مذكراتها:

"جعلني أشعر بأني طفلة ساذجة، لا أصلح لفعل شيء، وكلما أردت أن أستنشق الهواء لألتقط أنفاسي، أجده يدفعني لأسفل لأغرق مجددًا".

مسكينة هذه المرأة، أجزم أنها لو رأت "مصطفى" لتأكدت أنها تنعم برجل ومحظوظة به للغاية، فالحياة منحتها هدية!

أعلنت ساعة الهاتف أنها الحادية عشرة والنصف مساءً وابتسمت مزهوة.

كنتُ هناك منذ أيام، حينما ألقيت بنفسي أمام سيارة من السيارات المُندفعة، تعمدتُ اختيارها بعناية.

احترت كالعادة قبل اختيارها، انتظرتُ قليلًا لأتأكد من أنه يُلوح بيديه ويطلب مني الركوب فاندفعت أمامه.

وأفقتُ وأمامي الطبيب يحمد الله أني ما زلت حية، كدتُ أنفجر من فرط البكاء، "حية" استوقفتني كلمته هذه، مخطئ ولا شك.

لماذا فشل المخطط، لماذا عليّ أن أبقى مع كل هؤلاء الناس بظنونهم، باعتقاداتهم، بأحكامهم؟

لم تتوان "خالتي" وسرعان ما انتهزت الفرصة للخوض في تفاصيل حياتي أمام الطبيب، وكيف أنها أسرفت في تدليلي.. إلخ.

ولم أبد رغبة في إيقاف أي وسيلة مواصلات، رغم الإرهاق الذي كابدته طوال اليوم ذهابًا وإيابًا من "الشقة" إلى "السايبر"، ولكن أنا الآن عليى استعداد لقطع المسافة سيرًا على الأقدام والوصول للشارع ذاته مرة أخرى والإلقاء بنفسي داخل السيارة هذه المرة.

الطريف أني وجدت نفسي قد عزمتُ أمري واتخذتُ قراري بسرعة لم أعهدها.. أن تكون أولى خطواتي التي أسارع باتخاذها هي تلك الخطوة.

أسير الآن ببطء شديد، تُطربني كل كلمة تُقال، بل إني سمعت إحداها وضحكت بصوت عالٍ وضحك هو الآخر ولكنه لم يرُق لي.

ليس هذا ما أريده، التأني في اختيار الشخص مطلوب، وبدأ بعض الأطفال يقتربون.. استقليت تاكسي" ليس هربًا منهم ولكن لنقل أنه كان حلم قديم.. "التجوال في شوارع القاهرة ليلاً"."

تختلف هذه المدينة تمامًا في الليل عن النهار، الأنوار والإضاءة .. متعة لم أذقها بهذا القدر قبلًا.

أخبرتُ السائق عن وجهتي بكلمة واحدة "شارع رمسيس"، رغم أني لم أذهب إليه سوى مرة واحدة ولكن تعلقتُ به واستهواني..

وتحركت السيارة وبدأ السائق يُجاذبني أطراف الحديث، ومع كل كلمة تخرج من فمي تزداد الفرحة وكذلك الشعور بالقوة.

الزحام يخنقني، منظر العربات المكتظة يعطلني عن الانطلاق، عرضتُ عليه أن يسلك طريقًا آخر وإن كان أطول فأجاب:

- لو الساعة والوقت اللي إحنا فيه ده مش فارق معاكي.. الفلوس فارقة معايا.

وبكل هدوء تقبل الأموال التي أخرجتها في الحال ومضى في طريقه دون أن يتلفت لنقطة الوقت

والساعة المتأخرة مرة أخرى.

وعدتُ أنا الأخرى.. تذكرت أمي والنقطة التي كثيرًا ما اختلفنا فيها.

أخبرتني أمي أن الرجال كلهم خائنون أجبرتها على استثناء "مصطفى" من القاعدة إلى أن أجبرني "مصطفى" على تمني الموت في كل يوم آلاف المرات.. أدركتُ حينها أنهم بالفعل خائنون.. ولكننا من نسمح لهم بذلك.

كم كنتُ حمقاء! حتى أبي لم أفكر في الزواد عنه.. دافعتُ عن الوهم الذي نسجته.

obeikan.com

"أبي"

المرة الأولى التي أنام فيها قبل أن أكرر الفعل ذاته كل يوم، "الدعاء لأبي" كانت فكرة طرأت لي

ونفذتها على الفور... أن أشارك أصدقائي على موقع التواصل الاجتماعي بما أقوم به من دعوات، وأصبحت عادة لم أخالفها قط..

."اللهم اعف عنه"

عفا الله عنكم جميعًا..

دعاء الليلة لبابا:

اللهم هون حسابه"."

دعاء الليلة لبابا:

.."اللهم اغفر له ما يعلمه وما لا يعلمه"

وإياكم.

أما اليوم أو منذ اليوم فاعذرني يا أبي..

وعدتُ أتسلى بالنظر مرة أخرى وعلا صوت السائق فجأة:

.أهو قربنا الشارع اللي جاي -

ونظرت، لا، ليس هو!

obeikan.com

- ده شارع رمسيس.. إحنا فين؟

مصر الجديدة. -

لم أكن أريد هذا ولكن تشابهت الأسماء واختلط الأمر على السائق.

ما من مشكلة..

نزلت من السيارة، لا بأس، كلها شوارع والسيارات تمرق في كل منها، فلتكن البداية هنا وليس "رمسيس" الآخر.

لا أنكر أن السائقين وطريقة حديثهم حتى مع بعضهم البعض مُروعة ومخيفة..

قد يقتل أحدهم الآخر مقابل خمسة جنيهات أو أقل.

و آلمتني قدماي من السير، الشارع مُمتد إلى ما لا نهاية ورغبتُ في الجلوس ولكن أين؟ ولكني لم أعد أهاب وجلست علي رصيف الشارع.

مرت أمامي ذكريات كثيرة، آلمتني ردود أفعال البعض وقضت عليّ ردود البعض الآخر..

ربما لأن هذا البعض الآخر هو من كنا ننتظر منهم "البقاء.. الدعم.. المساندة".

وأخرجتُ حقيبة يدي، تمتلئ عن آخرها بالأوراق وفحصتها ألقيتُ بأغلبها على الأرض فما فائدة هذه الورقة التي كتبتُ فها مواعيد امتحانات منتصف

obeikan.com

الفصل الدراسي للكلية، وهذه التي دونتُ فيها رقم أحد أساتذة شعبة اللغة الإنجليزية وعدني بإتاحة فرصة لي للتقديم في وزارة الخارجية.. احتفظت بواحدة. ألقيتُ بكل الأوراق و

نعم، هي هذه الورقة..

لا أدري لماذا لا ألقيها هي الأخرى.. دفعني شيء ما بداخلي إلى تركها والاحتفاظ بها.

وفوجئتُ بمن تضع يدها على كتفي وانتفضتُ مذعورة.. لا أعلم من هذه وكيف فعلت هذا، ولم تترك لي فرصة الحيرة ، تحدثت على الفور:

- أنا "صافي" مش فاكراني؟

واحتضنتها بقوة، قائلة:

بس إنتِ في إسكندرية! -

- إحنا هنا في زيارة.

وتأملتها.. أما أن عيني تؤلمانني فلا أبصرها جيدًا أو أن ظلمة الليل من حولنا جعلتني أبصر أمامي امرأة كاهلة.

- اتجوزتي؟

سكتت قليلًا ، ثم قالت:

- خير ونصيب الحمد لله، مكتوب.. آه أنا شفتك في التليفزيون فرحتلك

obeikan.com

جدًا وتستاهلي أكتر ده أنا قعدت أقولهم إني أعرفك.

- تقولي لمين؟

"أبو عمرو" وولاده، هتشوفيه دلوقتي بيركن عربية وجاي. -

- هو عنده ولاد؟

- مش بإيدينا.

الأسطوانة ذاتها التي قالها لي والدها المعتوه هذا، طالما أنه زوج ابنته في هذه السن لرجل متزوج ويعول فهذا هو الوصف الذي يليق به..

فعل هذا بابنته لأجل حفنة من المال.. أهو سعيد الآن لأنها تسكن في شقة فاخرة في الإسكندرية أو في حي كمصر الجديدة.

- مبسوطة يا صافي؟

- آه.

كدابة. -

- بحاول..

وقاطعتها، عن أي محاولة تتحدث؟ كيف ارتضت لأجل المال، أمي لم تفعل ذلك، رغم حاجتها الشديدة للمال بعد وفاة أبي.

أمي!!

obeikan.com

وتنهدتُ كيف طاوعني قلبي على تركها أو حتى رؤيتها، لو أفاقت وأدركت ما كنتُ أنتوي فعله... أأعود من جديد وأتراجع؟ لأجلها... بدلًا من أن أقضي عليها!

وشرعتُ في البكاء، وتعلقتُ بيدها للوصول معها إلى بيتها بدلًا من الجلوس في الشارع.

وصُدمت.

زوجها هو حارس البيت!

وتبينت.. الظلام الدامس في الشارع أحال العباءة المهلهلة التي ترتديها إلى فستان لم أره بوضوح.

وجلستُ وتناولت كوب الماء الذي قدمته لي وهي تتلو عليّ كل الاعتذارات الممكنة لعدم وجود ما تقدمه، فالسفر لتوهم من الإسكندرية للقاهرة كلفهم كثيرًا خاصة بعد غلاء البنزين واسترسلت في السرد.

وأدركتُ أن السيارة التي كان زوجها يستقلها هي سيارة أحد السكان.

لم أنتبه إلى المشاكل المادية التي حدثتني عنها، قاطعتها قائلة:

- إحنا ليه بنتوجع من أقرب الناس لينا؟

لأنهم ببساطة "قريبين" فبنتعشم فيهم. -

اتعشمتي في "عم عباس"؟ -

obeikan.com

- آه.

- ليه عمل كده؟

دي حكاية طويلة.. -

- مسامحاه؟

أبويا. -

هي على حق.. مهما فعل إنه أبوها..

"مصطفى" لم يكن والدي...

"ياسين" لم يكن والدي..

المهم إني كنت مقدمة على إيذاء نفسي للانتقام منهم وهم لا يستحقون.

استغفرتُ الله عما فكرت فيه وعن القرار الذي اتخذته لتوي.

كلام هذه الفتاة صاحبة الستة عشر عامًا لمس قلبي..

هي على حق "... كل يوم هنتعشم ونتساب، وهنتوجع في العادي.. بس اللي بنحبهم هيوجعونا أكتر"!

وجلستُ بجانبها لأستمع حكايتها بإنصات.

obeikan.com

الفصل الحادي عشر

قرية شهرزاد - محافظة الإسكندرية

الطريق هذه المرة كان غريبًا.

لستُ أدري إن كانت رحلتي هذه إلى الإسكندرية سأعود بعدها إلى القاهرة مرة أخرى أم لا؟

الأغلب أنها ذهاب بلا عودة.

السائق ذاته "الأسطى هاني" توطدت علاقتنا، المال يصنع المعجزات.

وحاولتُ عبثًا أن أنام.. أن أستريح قليلًا ولكن أنى لي ذلك!

كلام "صافي" يتردد في أذني، في البداية لم أصدقها.. توقفتُ كثيرًا أمام جملتها هذه.

ده كتر خيره إنه رضي. -

- كان ممكن ميوافقش؟

- أبويا أتحايل عليه إنه يرضى!

وجاءني صوت "الأسطى هاني":

obeikan.com

- هي دي القرية؟

لا لسه جوه. -

بس حلوة المنطقة، كلها قرى على البحر. -

ولم أعلق علي ما قال، ولا حتى أجبته عن سؤاله، فأنا حقًا لا أعرف كم يبلغ سعر "الشاليه" هنا.

لا أعرف أيضًا لماذا حادثته وطلبت منه أن يقابلني في "شارع رمسيس" وأذهب معه إلى الإسكندرية.

هو الآخر.. اختلط عليه الأمر وأخبرني بأنه يقف عند "مسجد الفتح" لكنه لا يراني.

وصفتُ له مكاني وجاء بسرعة وفي ثوانٍ معدودة قام بجمع المال ووضعه في جيبه ثم تحركنا بالسيارة.

عدتُ لأفكر في أمر هذه الفتاة أو بالأحرى هذه المرأة..

لم تتلق عزاء والدتها إلى الآن.. ألهذه الدرجة خاف عليها والدها؟

أخبرتني أمي أن والدي كان يقوم بمثل هذه الأشياء، وأن زواجها منه كان بطريقة مماثلة وأكمل

"ياسين" نهجه من بعده وماذا كانت النتيجة؟

وصلنا إلى القرية.

obeikan.com

شكرتُ "الأسطى هاني" وأعطيته المزيد من المال دون أن يطلب.

فتقبله شاكرًا وسارع لحمل حقائبي ولكن سارع "يحيى" لأخذها منه ليحملها وتغامزا بكلام هامس لم أسمع منه شيئًا وإن سمعت الإسكندرية كلها صوت ضحكهما ومصافحتهما بالأيدي وكأنها ليست المرة الأولى التي يلتقيان فيها.

"يحيى" هو الموظف المسؤول عن تنظيم الدخول بترحاب مصحوبًا بالعديد من الأسئلة حول سبب هذه الزيارة المفاجئة، وهل سيأتي الباقي في صباح الغد، ولماذا لم أخبره بقدومي مسبقًا كما كانت الزيارة السابقة.

وسكت قليلًا دون أن ينتظر ردًا على طوفان الأسئلة هذا، ثم تابع:

- عمومًا إحنا في الخدمة والأستاذ "وائل" حبيبنا.

- "وائل" مين؟

تذكرته.. كان ينتظر مني مكالمة بشأن برنامج "نماذج مُشرفة" ودخلتُ في نوبة من الضحك.

وضحك هو الآخر واتسعت حدقة عينيه وقال:

- شنط كتير، هتنورينا أد إيه؟

- فيه شقة فاضية؟

إحنا داخلين على موسم، كل سنة وإنتِ طيبة. – فيه كل حاجة، رغم

وأخرجتُ له المال كي يتأكد من جديتي ورغبتي الحثيثة في استئجار شقة ولو لقضاء هذه الليلة فقط.

ورد بسرعة:

– والله عيب، دي آخر حاجة نتكلم فيها.. بس نصيحة طالما ناوية تقعدي هنا مينفعش دخول أي مرافق لازم إجراءات بس الشقق كتيرة.. إحنا في موسم، واضح إنك عارفة.

وطلب مني أن آتي معه ولم أتردد لحظة..

المكان لم يختلف كثيرًا عن الزيارة السابقة، أنا التي تغيرتُ كليًا، شتان بين "يُمنى" التي كانت هنا منذ أيام... يقوم "يحيى" هذا بشرح كل التفاصيل الخاصة بالقرية لها ولزملائها و"يُمنى" التي تسير بجانبه الآن بغير حول منها ولا قوة.

وتوقف أمام أحد المباني التي تبعد عن شاطئ البحر وصعد إلى الدور الثالث وفتح باب الشاليه بقوة.

ما هي إلا ثوانٍ حتى أخذت منه المفتاح وهممتُ بإغلاق الباب.

– متكلمناش.

وأوضحتُ له أني عرضتُ عليه أن أدفع إيجار الشاليه قبل صعودنا وهو الذي

رفض.

فابتسم عن أسنان صفراء وأخرج علبة السجائر من جيب قميصه وأشعل السيجارة ونفث دخانها وقال:

- كنت عايز أشرحلك المكان ونظام الشقة.

- شكرًا.

وهممتُ بإغلاق الباب للمرة الثانية..

أنا حاجتي جوه وهدخل أجيبها.. دقيقتين بس.-

ودخلنا سويًا إلى الغرفة التي يضع فيها حاجياته وأطلتُ النظر إليه وإلى عينيه الجريئتين وابتسامته الواثقة، وانتقلتُ بعيني إلى الغرفة بكل أرجائها.. بأثاثها القديم المتهالك والسرير الذي تناثرت ملابسه عليه.

وعدتُ إليه وهو يتظاهر بجمع حاجياته وابتسمتُ حينما أبصرتُ خاتم الزواج في يده اليسرى وتخيلتُ هذه الحمقاء التي تغط في نوم عميق دون أن تدري أين هو زوجها وماذا يفعل.. تستحق أن يكون هذا جزاءها.

ويبدو أن ابتسامتي قد سهلت له مهمته وأزالت عن عاتقه الكثير.

وسرعان ما مد يده وأطفأ نور الغرفة وأغمضتُ عيني أنا الأخرى، كنت سأطلب منه أن يقوم بإطفائه ولكنه قام بذلك مشكورًا..

ثم فتحتها بعد دقائق!

obeikan.com

فتشتُ بسرعة هيستيرية..

لم أبحث عنه، دُهشت قليلًا أنه ليس بجانبي ولكن ما كنتُ أفتش عنه أهم بكثير من معرفة أين ذهب، وما الذي يقوم به الآن.

نظرتُ إلى بقعة الدم على الملاءة البيضاء وشعرتُ أني أخيرًا.. أخيرًا.. قد أخذتُ بثأري!

وانطلقتُ في نوبة من البكاء.. أهو الندم؟ هل تسرعت؟

وأدركتُ أنه في دورة المياه.. يرفع صوته مناديًا عليّ!

وقمتُ مسرعة.

obeikan.com

الفصل الثاني عشر

بنك مصر - فرع الدقي

تعرفتُ على "ميرنا" و"رنا".

جميلة هذه البلد بالفعل وإن كان الأجمل هو...

"الثأر، الانتقام، الشعور بالراحة"..

توطدت أواصر الصداقة بيننا، يعملان معًا منذ مدة، تُضمر كل واحدة للأخرى مشاعر كره

وضغينة ويتظاهران بغير ذلك لا أدري لماذا؟!

ما الذي تجنيه كل منهما من وراء هذا؟

قصصتُ عليهما كل ما حدث..

الفترة التي مرضت فيه أمي كانت مُتعِبة..

لن أنسى المواقف التي كنتُ أمر بها ويا لحاجتي الشديدة لأن أقصها عليها.. أسألها عن رأيها فلتنصحني، فلتوبخني، فلتشاركني ولكني لم أشأ أن أتعبها وأحملها أكثر مما بداخلها.

كانت تسألني عما بي فأكتفي بإخبارها أني بخير والحقيقة أني لم أكن أبدًا

obeikan.com

بخير..

لذلك، أحرص من فترة لأخرى على القيام بذلك الطقس.

الحديث حتى مع الغرباء.. المهم هو البوح هو محاولة استنشاق الهواء في لحظات بدا الأمر فيها أنه من المستحيل مجرد التنفس.

بدأتُ بذكر الأيام التي كنتُ فيها في الصف الثالث الابتدائي..

صراع لم يبرحني منذ الطفولة..

بين رغبة في محو هذه الفترة من ذاكرتي، وفي الوقت ذاته الحنين إلى السويعات التي كنت أقضيها مع أبي، والتي لن تتكرر..

وظللتُ أحكي إلى أن أنهيت كلامي وتنهدت وأنا أرقب ملامحهما..

لم تُعلق أي منهما إلا عندما قالت "رنا":

إحنا بننقل كل شوية ونازلين مصر.. هنسيب إسكندرية. -

واستقليت معهما السيارة الأجرة دون تفكير في أمر السفر، ووصلنا إلى "الدقي"، حيث قررتا المكوث هناك.

كنتُ أتلهف شوقًا لمعرفة المزيد والمزيد عنهما وكيف وصل بهما الحال إلى ذلك ولكني لم أرد أن أجبر إحداهما على الحديث..

ربما لأني كنتُ أراهما حين العودة من الخارج غاية في التعب والإرهاق.

تدخل "رنا" إلى دورة المياه وتظل تتقيأ في حين تقف "ميرنا" في الشرفة تُدخن بشراهة ثم تنام بعد تناول حبة الدواء التي تزعم أنها "برشام للصداع".

مواعيد نزولهما مقدسة، لم تتغير منذ التقيتُ بهما وطلبت منهما أن أنضم إليهما..

ذات يوم، وجدتُ "رنا" تسألني بدون مقدمات:

- ليه الناس بتحكي؟ إنتِ حكيتي من غير ما نسألك أو نطلب منك.

أجبتها بدون تفكير:

الكلام راحة وفيه شعور... -

وقاطعتني:

- بلاش كلامك الكبير ده، مش هفهمه.. النهارده كان معايا واحد صمم يحكيلي حاجات كتير أوي.. مكنتش عايزة أسمع.

وسألتها عن سبب عدم رفضها وامتناعها عن الاستماع له فضحكت وقالت:

- أكل العيش، حاجة طبعًا متعرفيهاش، زي الوجع وكسرة النفس.

ما هذا الذي تقوله، حاولت أن أذكرها بما قصصته عليها فقالت:

- دلع، هما ولاد الناس كده.. اخترتي أسهل حاجة وبدأتي تلومي اللي حواليكي، ارجعي كليتك، إنتي عمرك ما هتبقي زينا حتى لو حاولتي!

obeikan.com

وانطلقت تتحدث عن ظلمي لكل من حولي فـ"خالتي" لم تُرغمني علي الزواج مثلًا من عجوز مسن ولم يكن زوجها متصابيًا يسمح لنفسه بالتعدي عليّ و"أخي" لم يخطئ بل على العكس هو يريد أن يؤمن مستقبله، وكل التفاصيل التي ذكرتها اتهمتني بشأنها بأني أنا المخطئة ولم تدع لي فرصة للرد وخرجت من الغرفة.

خرجت وتركتني أقلب كل ما قالته في رأسي وقالت "ميرنا":

- متزعليش منها يا " يُمنى".. اسمك حلو أوي على فكرة واسم أخوكي كمان حلو .. "رنا" كان المفروض يكون ليها اسم تاني.

واستفسرتُ منها.. فقالت:

أخواتها سارة ويارا، وكانت والدتها عايزة تسميها "لارا" بس أبوها كتبها "رنا".

ثم حدثتني عن حبها الشديد لها وخوفها عليها، رغم أنها تكبرها بعامين أو ثلاثة تقريبًا وظهرت علي وجهي ملامح الدهشة والتعجب ففهمت ما أقصده وقالت:

المسؤولية بتكبر والهم بيقصف العمر. -

أخبرتني بأن معلم اللغة الإنجليزية في مدرستها كان دائمًا ما يردد هذه العبارة، وكان دائمًا ما يردد أيضًا أن مستقبلها سيكون مبهرًا.

obeikan.com

ثم ضحكت بصوت عالٍ وهي تردد الكلمة "مبهر" وقالت:

- كان بينطق اسمي غلط واتضايق وأقوله:

أنا "ميرنا" مش "مارينا".

ثم انهمرت دمعة مفاجئة من عينيها وأردفت:

- شوفته من كام يوم بس مقلتلوش إني "ميرنا" مش "مارينا" كل اللي عملته إني جريت بسرعة كنت هقع.. بس فرحت إنه مشافنيش.

مخطئة ولا شك!!

هل فرحت بالفعل أنه لم يرها.. من الممكن أن يراها في مناسبة أخرى ومن الخطأ أن يكون هذا المعيار هو الذي تبنى عليه حساباتها.

ولكني لم أشأ أن أخبرها بذلك ولم أشأ أن أخبرها أيضًا أني سأنزل في صباح اليوم التالي وأتوجه للبنك..

لن أطلب منها إيقاظي لأنها لن تفعل كالعادة ستغط في النوم.. سأضبط الساعة وأستغل قرب الشقة من فرع البنك في الدقي.. لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا..

وقلت بهدوء:

- أنا آسفة وهعتذر لـ "رنا"..

وضحكت وأخبرتني أن الاعتذار الحقيقي هو تجاهل الموضوع برمته وكأنه

لم يكن، وعدم ذكر الماضي أمامها مرة أخرى.

استيقظتُ في صباح اليوم التالي مبكرًا وحزمت حقائبي استعدادًا للرحيل، تأكدتُ أني قد جمعت كل ما يخصني ولم أترك شيئًا.

نظرتُ مليًا للورقة التي كتبت فيها عنوان الشركة.. صادفتني أكثر من مرة أثناء ذهابي للبنك وأثناء الفترة التي عملت فيها في المكتبة.

وقبل النزول فاجأتني "ميرنا" بسؤالها:

- مفكرتيش إحنا ليه مخفناش منك؟

لم أجد ردًا مناسبًا على سؤالها.. ربما لأني لم أدرك ما تقصده.. لا أعلم ولكني آثرتُ الصمت..

فتحدثت هي عن أنها تريد معرفة السر وراء اختياري للفترة التي كنتُ فيها طفلة في الصف الثالث الابتدائي لأبدأ بها حكايتي.

رغم أني على حد تعبيرها قد نزلت الكوارث على رأسي وانهالت مؤخرًا منذ عام تقريبًا.

سكتتُ قليلًا ثم قلت:

- هي دي الحقيقة.. الموضوع بدأ من زمان أوي..

من اليوم اللي أبويا مات فيه.. من ساعتها وأنا مليش ضهر.

من اليوم ده وأنا بمثل إني عايشة بس الحقيقة غير كده...

obeikan.com

الفصل الثالث عشر

صالة ٢ - مطار القاهرة الدولي للركاب

"الهرب" الوسيلة ذاتها التي لجأ إليها "ياسين" واستخدمها "مصطفى" والحل الوحيد أمامي الآن.

ضقتُ بكل ما يحدث.. الأيام هنا باتت لا تُحتمل.

ليلة أمس أكدت لي أن الجلوس مع "ميرنا" و "رنا" أصبح طقسًا مزعجًا.

وكأن الحياة تتفنن في إخضاعنا.. السفر إلي الإسكندرية لم يكن مناسبًا أو مجديًا.

النجاة من هؤلاء الناس غنيمة، تركهم إلى ما لا نهاية!

أدركتُ حقًا أن القدر يسخر مني حين وطأت قدماي هذه الصالة.

كنتُ هنا منذ مدة قصيرة، كل الحكاية أني سئمت.. كانت عبارة سمعتها في أحد الأفلام "التمسك بالأمل الآن ما هو إلا نوع من الوقاحة" وضحكت.

الساعة العاشرة والنصف والطائرة ستقلع في منتصف الليل .. ما الذي أتي بي مبكرة إلى هذا المكان؟

وقمتُ للتجول ودمعت عيناي رُغمًا عني.

تذكرتُ "ياسين"، هنا كان وداعنا.. هنا كانت أولى اللطمات التي لم أفق منها إلى الآن ولكني أقوم بالفعل ذاته الآن.

"ياسين" لم يتعرض لكل ما قاسيته.

اختار أسهل الطرق دون التفكير في المواجهة، دون التفكير في العواقب، أما أنا فقد أُجبرتُ على المواجهة.

هي لحظة يُدرك فيها المرء أن قراره بات مصيريًا ولا جدوى من تأخيره فيُسارع في اتخاذه دون التدبر للحظة ما الذي سيجنيه من قراره هذا.

قراري في تلك الليلة مع ذلك الرجل كان نعم الصواب.

لا أدري كيف تأخر.. ربما ترددت قليلًا لخوفي من المكان ذاته.. كان المكان مرعبًا والحقيقة أن أنفاسه التي كانت تحوم حولي كانت أشد رعبًا.

كل ما حدث في تلك الليلة يتجسد أمامي كل يوم تقريبًا.

وظللتُ في سيري في هذا المكان الفسيح أراقب عيون الناس وأتسلى بالنظر إليها..

هؤلاء متجهون لرحلة عائلية، تبدو الفرحة مُرتسمة في عيونهم.. وهذا أظنه متجهًا إلى رحلة عمل وهذه لا أدري تحديدًا ما هي وجهتها ولكنها من الواضح أنها تتأهب للقاء الأول.. ملابسها وأدوات التجميل الصارخة التي

obeikan.com

استخدمتها تُبرهن على ذلك.. لقاء في المطار.. الأمر يبدو غريبًا ولكن لا يهم.

مرت ربع ساعة فقط! ما هذا الملل؟!

وذهبت لأجلس لأرتاح قليلًا وإن كان الجلوس فيه دعوة للتفكير والتدبر.. في التريث.. وهذا ما لا تحمد عقباه.

ووجدتُ من تمد يدها وتُصافحني.. لا يُمكن أن تكون هي "أسماء".

واحتضنتها، وغمرتها بالقبلات.. يقف بالفعل بجانبها، ولم أصدق أن القدر رحيم إلى هذا الحد وأن الصدفة جمعتني به أخيرًا.

نطقت الاسم بوهن "مصطفى" وكأن روحي انتفضت بداخلي ومددتُ يدي لأصافحه وتسارعت أنفاسي وكدت أقع من فرط الفرحة.

وهمستُ قائلة:

أخيرًا! -

وحشتيني يا طنط. -

قالتها "أسماء"، ولم أرد.. لم أكن منتبهة أو أعي أنها بجانبي من الأساس.

عجبًا لهذه الحياة وما تفعله بنا.. في هذا المكان ودعت "ياسين" واليوم شاء الله أن ألتقي

بـ"مصطفى" فيه.

obeikan.com

وكررت "أسماء" ثانيةً فقلتُ لها باسمة:

مش قلتلك بلاش طنط دي!

لأول مرة منذ شهور ترتسم الابتسامة على وجهي.

ارتسمت على وجهي بعد أن آمن قلبي بوجوده.

وطلب منها أن تذهب وتجلس مع أقاربهم لحين الانتهاء من حديثه معي.

تشبثت بعينيه كالغريق الذي وجد أخيرًا ما ينقذه.

أريد الآن أن أحكي له كل ما حدث.. لن ألومه، سأخبره كي أرتاح، سيحمل عن كاهلي الكثير والكثير "الشعور بالذنب، الخوف، الألم، الأرق الذي لازمني طيلة الأسابيع المُنصرمة".

وبدأتُ في الحديث.

أول كلمة نطق بها لساني "الحمد لله"، كنت أعلم أني سأراه مرة أخرى، إني سأتحدث معه.. أشعر بالفعل وكأني في عالم آخر، لا يوجد به سوانا.

لم أنتبه إلا على صوته.. يُكرر طلبه لـ "أسماء" أن ترحل وتذهب بعيدًا عنا.

حاولت أن تُسلم عليّ فمنعها بعنف حتى كادت تبكي وامتثلت لأمره.

للحظات ذكرتني بـ "ياسين"!

كنتُ أمتثل لأوامره أنا الأخرى.. "الطاعة العمياء" ما يفرضه الأخ الأكبر

obeikan.com

وفي النهاية..

ما تتكلمي.. -

وتبدد الكلام والرغبة فيه مع سماع صوته من جديد وسألته:

- ليه مَشيت أسماء؟

- يعني مش عارفة!

لم يعد أسلوبه هذا ملائمًا الآن.. ألا يدرك أن من تقف بإزائه الآن أمامها ثوانٍ معدودة قبل أن تسقط مغشيًا عليها.

قدماي لن تحملني أكثر من هذا، جسدي قد أنهكه التعب.

أنا تعبانة. -

- من الشغلانة الجديدة.. خسيتي باين عليكي.. ربنا يعينك بقى.. كان ممكن أصدق أي حاجة إلا ده..

أيقصد العمل في المكتبة؟ معه حق فالمرة الأخيرة التي حادثته فيها كانت إبان فترة عملي في المكتبة ولكن..

فركتُ عيني.. أكل الذي لاحظه وزني الناقص؟

- عايزة إيه دلوقتي؟

- ده بس اللي أنت شايفة "إني خسيت"!

obeikan.com

مشوفتش عيني البهتانة والسواد اللي تحتها.. طب رعشة إيدي وأنا بسلم عليك.. روحي اللي اتسحبت من جوايا وأنا بقول اسمك.. التهتهة في كلامي؟!

- لاحظت كل ده.. مستغربتش ولا استغربت كمان إنك هنا لوحدك الساعة ١١ ونص.. حتى دخان السجاير مبقاش يضايقك.. بقى عادي بالنسبالك.

عادي بالنسبة لي! -

وكانت الكلمة أكثر مما أحتمل..

إنتِ عمرك ما كنتِ بتسلمي عليا بالإيد... أنا ماشي. - ده

وظننته يمزح.. بدأ بالفعل في السير..

وضحكت بصوت عالٍ، ثم تجمعت الدموع في عيني حتى حجبت عني الرؤية!

أرى ظله يبتعد.

تراءت إليّ "أسماء" وهي تُحاول أن تأتي وتُسلم عليّ فيمنعها ثانيةً ويبتعد أكثر فأكثر ويرحل ..

لم يكن ما حدث وهمًا!

رأيته لثوانٍ.. تكلمنا، هذى بكلام لم أفهمه ورحل.

الكلمة الأخيرة هي الأصح، هي الأدق، هي الحقيقة التي لا تقبل الشك "إنه رحل".

obeikan.com

الفصل الرابع عشر

جمعية عرابي - مدينة العبور

كانت ردود أفعالهن مختلفة.. الأولى سألت عن سبب رجوعي وهل هناك أمل في استرداد الأموال الخاصة بالحجز، وبتذاكر الطيران بدلًا من أن تضيع.

وردت عليها الثانية بعنف:

ما قالتلك مش عايزة فلوس.. هي مش زينا. -

وتركوني لأنام.

مر يومان..

كانت "رنا" أول من حاولت فتح الموضوع مرة أخرى قائلة إني في طريق خاطئ وأنني أبالغ في تهويل الأمور، وأن عليّ المغادرة وبسرعة واستغلال ما معي من مال في الرحيل عن هذا المكان الذي تتمنى أن تُتاح لها الفرصة في الابتعاد عنه.

أخرجتُ كل ما معي من أموال في لحظتها وأعطيتهم لها قائلة:

خديهم وامشي. -

obeikan.com

بدا أنها غير مُصدقة فسألتني إن كنت أتحدث بجدية فأجبتها:

والله ما عاوزاهم. -

انكبت على الأموال بسرعة وأخذتهم بلهفة، وما هي إلا دقائق حتى وجدتها تفتح الباب وتخرج دون أن تُلقي بالسلام حتى.

- غبية!

قالتها "ميرنا" بعصبية شديدة وأردفت:

هي فاهمة إنه كده خلاص؟

أنا عايزة أنزل معاكي من دلوقتي.. مش هقعد هنا. -

مينفعش. -

- ليه؟

سكتت قليلًا ثم استرسلت في الحديث، لم تُخطئ في كلمة واحدة!

منذُ الليلة التي قابلته فيها وإلى الآن لم أنم..

أطلقت عليّ "مغفلة"!

حاولتُ إقناعها بأنه سيتصل وهذا سبب تمسكي بالهاتف وعدم تركه من يدي ومحاولتي الدائمة أن أظل مستيقظة ولو غفوتُ لدقائق قليلة أستيقظ مفزوعة.

obeikan.com

هي على حق في كل ما قالته.

أنا معاكي لو هتنزلي دلوقتي كمان مش بالليل.

مش نازلة لأن "رنا" مش معاها مفتاح.

رنا؟!

آه، عشان لما تييجي بالليل.

من المستحيل أن تعود مرة أخرى.. إلا لو كانت كاذبة في البداية وادعاؤها أنها تقوم بذلك لاحتياجها للمال حُجة.. المال معها الآن!

وحاولتُ أن أنام حتى لكي أستعد لما أنا مُقدمة عليه وفشلتُ فيه في المرة الأولى وتراجعتُ لغبائي الشديد.

استيقظتُ على أصوات في الخارج.. ظننتُ للبرهة الأولى أني أحلم فها هي "رنا" لابد أنهما متفقتان سويًا.

لم تكن تبكي، لم تكن ترتجف، كانت واجمة، كان صوتها عاديًا ولكن عينيها..

يا الله.. ما هاتان العينان؟ نظراتهما، لم أر خوفًا كهذا من قبل!

هممتُ أن أضمها بين ذراعي ولكن عجزت.

تذكرتُ أني أنا الأخرى في حاجة إلى من يطمئنني.. لا جدوى من الاعتماد عليّ لطمأنة أحد والتخفيف عنه.

وتفوهت بكلمة واحدة "ظابط"، ولم أفهم..

في حين انطلقت الشتائم من فم "ميرنا" وختمت قائلة:

- آه أنا عارفاهم.

وأدركتُ أن أمامي مدة طويلة كي أفهم ما يدور حولي هنا.. لا أنكر إعجابي الشديد بردود أفعال "ميرنا" وتقبلها لكل ما يحدث.

قامت وصحبت "رنا" وهدأت من روعها وصنعت لها كوبًا من الشاي، فبدأت في الحكي وإن كانت عيناها تلمع بلمعة الخوف والرهبة.

ظلت "ميرنا" تستمع وبخبرتها استطاعت إضحاكها في النهاية، وسألتها عن المكان فأجابت:

عربيته كانت جنب باب حديد وفيه صوت أغاني مبيقفش.. الباب كان علي الطريق.

علقت "ميرنا" بسرعة:

طريق! كنتي رايحة لأهلك في إسماعيلية؟

ولم تجبها "رنا" اكتفت بأن تضع رأسها في الأرض وتتجنب النظر لـ "ميرنا".

وفكرتُ لثوانٍ..

obeikan.com

باب حديد، أغانٍ، طريق الإسماعيلية.. اندفعتُ بسرعة:

أنا أعرف المكان.. دي جمعية عند مدينة العبور.. لو تحبي نروح هناك ونجيبه ولا هو عشان ظابط!

وضحكت "ميرنا" بصوت عالٍ ورمقتني "رنا" بنظرة حادة ودخلت الغرفة.

وتساءلت ما الخطأ الذي ارتكبته، لقد عرضت المساعدة، أنا بالفعل أعرف المكان وبإمكاني أن أدلهما عليه، فقد ذهبت إلى هذه الجمعية قبلًا.

ولم أشأ أن أظل بهذه الحيرة وقمتُ مسرعة وسألت "ميرنا":

أنا فيّ حاجات كتير مش فاهماها وعايزة أفهم!

صعب تفهمي!

ليه؟

متبقيش غبية زي اللي جوه، غلطتها أنها حاولت تفهم، كانت عايزة تروح لأهلها، ما هي بتحولهم الفلوس ع البوستة، عايزة إيه تاني؟

أكيد تشوفهم، تقعد معاهم..

"يمنى"... أنا شايفة فعلًا إنك ترجعي كليتك تاني!

للمرة الثانية أسمع هذا الطلب.. وكأن الأمر بهذه السهولة التي يتحدثون بها.. وسألتها:

ليه؟

تنهدت بألم وقامت بسرعة وأحضرت مساحيق التجميل الخاصة بها ولطخت وجهها بكثرة وقالت:

عشان تقدري تغيري اللي إحنا فيه.. ارجعي وكلمي الناس على أد ما تقدري تعرفيهم أو ماتعرفهمش.

أقولهم إيه؟

إن اللي مش أد الجواز والخلفة ميخلفش.

يعني إيه؟

دي المفروض تفهميها، التعليم باظ ولا إيه؟ أنا كده هتأخر.

مش قولتي مش نازلة؟

بعد اللي "رنا" حكته، محتاجة أنزل..

هاجي معاكي..

وضحكت الضحكة ذاتها وقالت:

ماشي، بس فكري في اللي قلته.

وترددتُ لحظات..

فكرت في أن أسالها عن أشياء كثيرة، ولكن لم أشأ وطلبت منها أن تنتظرني لدقائق ودخلت الغرفة.

obeikan.com

وقفت أمام الدولاب والملابس الكثيرة الموجودة بداخله، ثم قلدتها تمامًا فيما قامت به لطختُ وجهي بالكثير من المساحيق وخرجتُ..

وجدتها تجلس في الشرفة وتُدخن بشراهة ولمعت عيناها عندما رأتني أمامها وتشجعت، وكدت أسألها إن كان هذا التغيير مُرضيًا لها أم لا؟

وفاجأتني بسؤالها عن استغنائي عن الهاتف في اليومين الماضيين، وكأني لم أعد أنتظر مكالمته فأخبرتها ببساطة أن هذه هي الحقيقة.

وأن المرء مهما حاول أن يقنع نفسه ويجبرها على التسليم بأمر يخالف قلبه فلن تفلح محاولاته القلب ينتصر دائمًا في هذه المعركة!

ثم أردفتُ:

يمكن عشان مسمعنيش، مكانش فيه فرصة أصلًا أتكلم أو أقول حاجة!

كنتي هتقولي إيه؟

هنبهه إن إحنا اتقابلنا صدفة.. أنا عقلي فضل مش مستوعب الفكرة دي.. لو مكنتش عرفت أحجز التذاكر عشان أخلص الإجراءات بسرعة.. مكنتش شوفته.. مكانش بيدور عليّ.. يمكن عشان هو وغيره كانوا فاكرين إني قوية وزي ما استحملت قبل كده ومتأثرتش هفضل قوية.. ميعرفوش إني أضعف خلق الله.

صحيح.. إزاي في يوم رحتي الشركة السياحية اللي جنبنا دي ورجعتي وكله

جهز وضحكت قائلة:

ده إحنا بناخد وقت أكتر من كده.

أوضحتُ لها أن جواز السفر الخاص بي كانت أوراقه مستوفية منذ مدة، لذلك لم أواجه صعوبة في .....

وقاطعتني:

طبعًا معاكي لغات كمان.. إنتِ فعلًا مش زينا!

وسكتت قليلًا ثم انطلقت:

أبوكي مات "الله يرحمه " مسابكيش بمزاجه.. وأخوكي كان عايز يأمن مستقبله حقه ما هي بلد غابرة ده يا بخته.. اتهم أمك في لحظة غضب.

أنا أبويا سابني بمزاجه بس قبل ما يسيبني جرجرني في الأقسام أنا وأخواتي..

مبيصرفش علينا وضرب وإهانة لأمي.. أذاني.. شوهني.. كسرني.

وأمي.. داست على كرامتها عشان ميتقالش عليها معيوبة واتطلقت.

شوفتي القهر.. إنتي في نعمة مش حاسة بحاجة ولا عارفة حاجة.

قلتُ بسرعة:

بس المشكلة مش في أبوكي!

obeikan.com

آه طبعًا.. "رنا" قالتلي كده برضه إن أمي اللي غلطانة عشان صبرت.. إنتو معندكوش رحمة بتلوموا مين؟

كان لازم تاخد والدتك خطوة متسكتش.. تروح لمحامي مثلًا.

هو إحنا كنا لاقيين ناكل؟ وبعدين صح معاكو حق.. إزاي سكتت نشنقنها.. لكن اللي بيفكروا كده. اللي جبروها ع العيشة معاه.. اللي وصلونا للقرف ده.

ولم أجد ردًا مناسبًا فتابعت:

خلتيني أتكلم ليه بس.. أنا مش حمل كلام!

إذن لماذا كانت ترغب في النزول؟!

تبدو بالفعل متعبة للغاية وأحضرت لها مبلغًا من المال كي تتراجع عن قرار النزول الليلة فقالت:

خليهم لـ "رنا" هي محتاجاهم أكتر مني، أنا نازلة.

أنا هستنى مش هنزل النهارده.. هفكر في كلامك واتكلم مع "رنا" شوية.

الكلام معانا بيضر مش بيفيد، مش بيريح، خليها نايمة، النوم رحمة، يا رب ما تصحي.

وعقدت حاجبي من الدهشة ولاحظت فقالت:

مش بتحس بحاجة وهي نايمة، يا بختها دلوقتي، هتصحى وتبص لنفسها

obeikan.com

فتتعب... أنا أتأخرت.

- هتحس بإيه لما تصحي؟

- مهي دي المشكلة.. إنها لسه بتحس!

وتعلقتُ بيدها كالطفل الصغير وقلتُ بقوة: "يلا بينا".

obeikan.com

الفصل الخامس عشر

محل ملابس – شبرا الخيمة

لا أدري كيف أصف هذا الشعور بالقوة، بالسيطرة.

الكل يهاب مني دون استثناء!

أشعر بمتعة حقيقية وأنا أراهم خائفين، حذرين من مجرد الكلام، يُفكرون مليًا قبل الإقدام على خطوة كهذه.

زاد تقربي إلى "ميرنا" و"رنا".

شراء الملابس الجديدة بات ضروريًا، اختيار الملابس المناسبة للمهنة الجديدة.

سمعتُ "ميرنا" تقول أكثر من مرة أنها مهنة وأنه عمل نستحق أن نؤجر عليه في النهاية.

ذهبتُ إلى فرع البنك في شبرا هذه المرة، سئمتُ من فرع الدقي والذكريات التي تخنقني كلما مررتُ بهذا المكان أو اقتربت منه.

اليوم "السبت" والبنك مغلق وتكبدتُ العناء بدون فائدة.

أصبحتُ أنسى كثيرًا هذه الأيام.

وبدأتُ في العودة.

الطريق مزدحم والشوارع مكتظة بالسيارات.

لعنتُ غبائي للمرة الألف على عدم التفكير في استخدام "كارت الفيزا" بدلًا من الذهاب لفرع البنك والانتظار لحين إنهاء إجراءات السحب من دفتر التوفير.

وفوجئت بمن يرفع صوته مناديًا:

."يُمنى".. يا آنسة "يُمنى"

وضحكتُ ونظرتُ قائلة:

- مين حضرتك؟

- أنا "حازم" صاحب "مصطفى".. "مصطفى جمال" وكنا اتكلمنا مرة في التليفون قبل كده.

- في كلية الإعلام صح؟

- كنت.

كنت راجع من الشغل وشفتك ومكنتش عايز آجي بس لقيت نفسي باجي و..

سألته عن "مصطفى" فلم يرد فكررت سؤالي:

obeikan.com

- هو بخير؟

- آه الحمد لله..

ممكن رقمه.. أوعدك مقولوش جبته منين... هو تقريبًا قفل الفيس بوك.. -

وانهرتُ في البكاء.

لعنة الله على هذا الضعف الذي يعتريني فور سماع اسمه.. هل سأحادثه مرة أخرى؟ هل أجرؤ على فعلها؟ الم أنس ما قام به ومع ذلك طلبت الرقم.

وارتبك "حازم"، وبدأ القليلون يحيطون بنا وكدتُ أسبهم واحدًا واحدًا لعلهم يرحموني ويدعوني وشأني.

وزاد توتري وجففت دموعي بسرعة ورن هاتفه وتوقعت أن يكون هو وخطفتُ الهاتف من يده بعنف وكلي أمل.. نعم، ولم لا؟ لعله هو!

وأتاني صوت فتاة تسألني في قلق:

مش ده رقم "حازم"؟!

وأعطيته الهاتف وأنا أعتذر.. أتمتم بكلمات غير مفهومة.

وأنهى المكالمة سريعًا وهو يعد ألا يتأخر أكثر من ذلك.

هتمشي؟

مراتي بس تعبانة شوية.

obeikan.com

اتجوزت؟

آه..

إنت المفروض تكون في سنة ٢؟

عندي ١٩ سنة.. مكانش فيه حل تاني.

ربنا معاك.

دعوتُ له وأنا ألاحق بالدعاء.

طب لو فيه حاجة ممكن أقدمهالك؟

وشكرته.

وبدأتُ في السير.. أستعد للعودة وما هي إلا ثوانٍ حتى وجدته أمامي مجددًا يقول:

أنا آسف.. بس إنتِ شكلك تعبانة جدًا.. أنا..

أفقتُ ووجدت نفسي في صيدلية ووجدته أمامي يقول:

أوصلك طيب؟

غريبة! ليه ممشتش؟

خصم يوم مش حكاية.. ربك بيدبرها.

أنا همشي.. بقيت كويسة.

obeikan.com

على فين؟

معرفش ..

حقيقةً لم أكن أعلم، المنطق يُحتم عليّ العودة إلى الشقة التي أتشارك فيها مع "رنا" و"ميرنا" ولكن، المسافة بعيدة وأنا لا أقدر على الذهاب.

هل أقضي الليلة في فندق.. المال معي قد لا يكفي وأنا أجهل هذه المنطقة.

وعرض عليّ أن آتي معه.

لا أدري إن كان جادًا في عرضه أم أنها مجرد دعوة، ولكني وافقت على الذهاب معه.

المكان ليس ببعيد عن هنا "شبرا الخيمة" ووصلنا وبدا مُحرجًا من السباب والشتائم التي يرددها الأطفال الصغار وتأملتُ المنطقة.

هذه الرائحة أعرفها جيدًا.. الشباب الواقفون يبدون كقطيع ينتظر دائمًا الانقضاض على الفريسة.

ودخلتُ المنزل.

لم تكن نظرات الشباب في الشارع مرعبة بقدر نظرات من في المنزل.. لهن الحق في ذلك..

ثلاث فتيات.. أكبرهن في الثامنة عشرة من عمرها وقدمهن لي قائلًا:

"إيمان" و"علا" إخواتي، و"ياسمين" أم "سما" إن شاء الله، بس يا رب

obeikan.com

تطلع بنت.

وحان الدور عليّ فعرفتُ نفسي قائلة:

يُمنى".

لم أجد شيئًا لأضيفه.

الكل يُبحلق لي واستأذن قليلًا للجلوس مع زوجته في حين قدمت لي واحدة من أختيه كوبًا من العصير.

طلبت من أختيه الجلوس في "البلكونة"، كدتُ أختنق من حرارة الجو ولكنهما اعتذرتا فهو يمنعهما من الجلوس في الشرفة أو حتى فتحها!

وتعجبتُ من تفكيره...

وضحكتُ لحالي كيف جرؤت على هذا الطلب.. قديمًا كانت بالنسبة لي منازل الغرباء والآن ما عادوا غرباء منذ تلك الليلة في القرية..

وعاد "حازم" قائلًا:

إنتِ بس هتقعدي معانا يومين إن شاء الله لغاية ع الأقل ما تبقى كويسة.. هي بس المنطقة والبيت مش مستوى.

وطلبتُ منه أن يسكت واستأذن في النزول للذهاب للعمل.

إنت مرتحتش!

obeikan.com

لا أنا واخد على كده من زمان.

إنت بجد سبت الكلية؟ طب شغال فين دلوقتي؟

فرد أمن في فندق..

"إيمان" ممكن تحكيلك لأني بجد أتأخرت وهيتخصم مني كتير وإنتي يا "علا" خدي بالك من

"ياسمين".

وأغلق الباب بمفاتيح كثيرة ومضى إلى عمله.

رجوتُ "إيمان" أن تتحدث بسرعة فقالت:

الكل استغرب مش إنتِ بس.. بس والله ليلة فرحهم كانت جميلة.. المنطقة كلها كانت في الشارع هنا ومنمناش للصبح.

لم يكن هذا ما أريد معرفته.

لا أنكر أني دُهشت عندما علمت أنه تزوج وهو لا يزال في التاسعة عشرة من عمره ولكن ما حكته لي "صافي" جعلني على استعداد لتقبل وتصديق أي موقف كان.

خمس دقائق كانت المدة التي تستغرقها في الذهاب يوميًا إلى الصيدلية لإحضار الدواء لأمها المريضة..

رحلة كلفتها الزواج في سن السادسة عشرة.. الزواج من رجل في عمر

obeikan.com

والدها لإسكات ألسنة الناس.

بدءوا يتحدثون وتهمس النساء عن سلوك الفتاة السيئ.. كيف لها أن تخرج في وقت متأخر كهذا؟

لا بد أنها تخرج من وراء والديها.

وصل الكلام لمسامع "عم عباس" والدها فحسم قراره بسرعة وبدأ يُكلم أقاربه جميعهم كي يجد زوجًا مناسبًا لابنته.

الزواج كان الحل الوحيد من وجهة نظره لكي يُحافظ علي سمعة ابنته من هذه الاتهامات الباطلة..

تحملت المسكينة مأساة الدفاع عن نفسها والخروج من قفص الاتهام الذي وضعتها فيه العقول المريضة.

قد يكون هذا ما حدث لـ "حازم" أيضًا وأُجبر على ذلك.

ولكن لحظة واحدة.. الرجال هنا لا يُجبرون!

نحن من نُجبر.. نحن من نُرغم على القيام بأفعال... لا نملك سوى الامتثال للأوامر.

وسألتُ إيمان عن "ياسمين" فابتسمت قائلة:

دي حب عمر "حازم"، من يوم ما وعيت علي الدنيا وهو مش بيحبها ده روحه فيها.. عارفة الإحساس ده؟

obeikan.com

عارفاه جدًا أو كنت عارفاه.. كملي.

والدها أتوفى ومكنش ينفع تقعد في الشقة لوحدها فكان لازم "حازم" يسيب الكلية عشان يلاحق على أكتر من شغلانة في اليوم.

ليه؟

لأن الحاجة نار.. أنا عارفة إنك بسم الله ما شاء الله معندكيش فكرة يعني إيه رمضان يكون داخل وإنتي مش عارفة هتعملي فيه إيه؟

أنا قصدي ليه مينفعش تقعد لوحدها؟

أجابت بكلمة واحدة:

تتنهش.

سكتُ قليلًا ثم سألتها عن حازم وعلاقتها به.

أخويا الكبير، سندي.-

بس؟

هو فيه أهم من أن يكون ليكي سند في الدنيا دي.

مش شرط السند يكون أخ على فكرة يا "إيمان".

أيًا كان المهم أنه يكون ضهر وأمان وملجأ.

بس ليه فندق وإزاي؟

obeikan.com

إيه المشكلة، فلوسها كتير وهو محتاج فلوس.

ببساطة كده؟ طب عمرك ما زعلتي منه مثلًا؟

لما كان خاطب.

ومضت تحكي لي عن ضربه لها لأنها تأخرت في الخارج بعد درس اللغة العربية وعادت إلى المنزل بعد الثامنة وفي الوقت ذاته كانت "ياسمين" تصل إلى بيتها بعد ذلك بساعات ولكن بما أنها معه فله الحق في ذلك.

ذكرتني بمكالمات "ياسين" التي كانت تستمر إلى الفجر وكيف حطم هاتفي بعد سماعه لحديثي مع أحد زملائي في الدروس، وكانت العاشرة والنصف تقريبًا.

ذكرتني بالصراع الذي سيظل قائمًا وبالسلطات التي تُمنح للذكور كي يمارسون بها حقوقهم ويمنعون الفتاة من مجرد المناداة بها.

ذكرتني بما نعاني منه من ازدواجية للمعايير وسياسة الكيل بمكيالين.

ذكرتني أننا في مصر.

الفصل السادس عشر

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

بدأتُ في التقليب في الجرائد دفعًا لكسر الملل في ثاني أيامي في هذا المنزل..

وجدتُ جريدة أمامي.. لم يكن بي شوق أو لهفة تُذكر لقراءة واحدة من هذه الجرائد التي رُصت بعناية.

تهوى "علا" أخته الصغرى الصحافة وإن شرح لها من الآن أن حصولها على مجموع في الثانوية العامة ودخولها كلية الإعلام فإنه من المستحيل أن يسمح لها باقتحام سوق العمل، و لو على سبيل التدريب.

و"إيمان" الدكتورة كما يحب أن يناديها.

لولا اختلافي معه في طريقته والجدار الذي يفرضه عليهما لكان "حازم" هذا رجلًا مثاليًا.

الحق يقتضي الاعتراف بأنه خائف عليهما ولكن ليس لهذه الدرجة!

المشكلة ليست فيهما.. لماذا يجنين عناء الوجود في مجتمع كهذا؟

"فاطمة" جارتي، أجبرت على ترك وظيفتها رغم أنها عانت الأمرين

obeikan.com

في الوصول إليها وعندما سألتها أخبرتني أن قوتها على المقاومة قد انهارت.

طلبتُ منها أن توضح لي فشرحت أنها تحملت الكثير من الملاطفات من زملائها في العمل وأخبرتني أنه من غير المعقول أن تُعامل كسلعة يتفحصها الجميع وقتما أراد وأينما أراد.

في الشارع حدث ولا حرج وفي العمل وفي مواقع التواصل الاجتماعي وفي كل مكان.

كان أمامها خياران لا ثالث لهما:

إما الاستمرار في المقاومة إلى الرمق الأخير أو الزواج.

أخبرتها بأن الزواج مقاومة هو الآخر فابتسمت قائلة:

مع راجل واحد.. أرحم من الكل.

وطرحتُ على نفسي السؤال ذاته.. لماذا فُرضت علينا هذه المقاومة من الأساس ومتى نتنعم بحرية وسط هؤلاء الناس دون أن يُخطئون فهمنا أو يشكون في أخلاقنا.

وعدتُ للجريدة...

العناوين متشابهة إلى حد الضحك "غلاء الأسعار، البطالة، قطع الكهرباء".

obeikan.com

لا زلتُ متمسكة بالكلمة التي قلتها لـ"كريم" ذات يوم أن حلمه سيتحقق، وسيلعب في أكبر الأندية وستتحدث عنه كل الصحف.

تسمرتُ عند هذا المانشيت.

"الأولى على الجمهورية في الثانوية العامة تبحث عن زبائن الهوى"..

اضطربت أفكاري وعجزتُ عن النطق، اسم الصحفي مكتوب "وائل" ولكن كيف؟! هل رأني وهل هناك أخبار أخرى أُرفقت معها صور؟

ودخلت على موقع الجريدة الإلكتروني وأدركتُ كل شيء..

العنوان مكتوب بطريقة نموذجية "شاهد قبل الحذف.. قصة فتاة من الجامعة إلى الدعارة".

لم يُخطئ "وائل" بل على العكس.. استغل الموقف ببراعة فائقة ونشر الخبر في الجريدة التي يعمل بها.

كانت هذه وسيلة "يحيى" للانتقام.. أكاد أجزم أنه كلّم وائل في هذه الليلة.. قص عليه كل ما حدث ولم يتوان "وائل" عن أداء واجبه ورد الجميل لصديقه الذي قدم له قصة خبرية ممتازة..

أتساءل عن السرعة التي انتشر بها وعدد المشاركات على مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة.

الشهرة سهلة إذن.. قام الناس بواجبهم خير قيام وهذا مُتوقع..

obeikan.com

بالتأكيد كان "حازم" يعرف، ومع ذلك لم يُمانع من استضافتي في منزله.

سأنتظر حتى يعود من عمله وأسأله.. لا بد أن أعرف السبب كي لا أُجن.

لو كان الأمر بيدي لحادثته في الهاتف دون أن أنتظر، ولكن تحملت الساعات الثلاث وأنا أكاد أتمزق.

قضيتُ الوقت في جمع حاجياتي للرحيل عن هذا المنزل..

من يخاف على أختيه من شرفة المنزل لن يأمن لوجود من مثلي معهما!

لا يعلم أحد الحقيقة.

"كلنا فاسدون.. لا أستثني أحدًا حتى بالصمت العاجز.. قليل الحيلة".

قالها "حازم" ولم أفهم ما يقصده فسألته عن ماذا يعنيه:

دي جملة مشهورة اتقالت في فيلم، من أصدق الجُمل اللي ممكن أسمعها في حياتي.. آه صحيح عرفتي أنا ليه سيبت الكلية؟

آه، عرفت.

لو معرفتيش إني في كلية قمة وقابلتيني كموظف أو كفرد أمن في فندق نظرتك فيّ هتتغير؟

مش عارفة.

إحنا نفس الناس.. إنتي غلطتي وغلطة كبيرة جدًا كمان..

obeikan.com

قاطعته:

حتى إنت بتقول كده؟

دي الحقيقة، أنا مش هدور ليه عملتي كده أو ناوية على إيه أنا اللي أعرفه إن إنتِ "يُمنى"،

مهما حصل هتفضلي "يُمنى" اللي غلطت وممكن تغلط تاني بس المبدأ واحد وبعدين أنا مين أصلًا عشان أحكم.

أيحاول إرضائي؟ ما الفائدة؟!

!"بس إنت مش بتعمل كده مع "إيمان" و"علا

من اليوم اللي أبويا أتوفى فيه وبعديه أمي وأنا راضي بقضاء ربنا بس أتمنيت إنهم ميكونوش بنات، يااااه كنت هرتاح كتير.

وأضاف:

- ع الأقل مكنتش هبقى خايف عليهم أوي كده..

ولم يُكمل جملته، حان وقت الذهاب إلى المهنة الثانية "المصنع" الذي يعمل فيه.

وقام واستعد للنزول فقلتُ له في تحدٍ:

أنا غلطانة بس غلط عن غلط يفرق.

obeikan.com

وكدتُ أخبره أني لازلت بخير كي يطمئن قلبه على أختيه وعلى زوجته، ولكني لم أرد فما الفائدة طالما أني قد قررتُ الرحيل عن هذا المنزل.

سأستمر في طريقي الخاطئ حسب تعبيره.. لأكن نموذجًا خاطئًا أو حالة خاصة مثلما كنتُ في البداية.

لن أعيد حساباتي لأجل أحد.

ثم قلتُ له:

أنا خايفة أحبك!

قلتها وأنا أتحاشى النظر إلى عينيه.. كارثة بالفعل لو تعلقت بأحدهم مرة أخرى.. سعادتي تُرهن بوجوده بجانبي.. إلى أن يرحل ويتركني في منتصف الطريق.

أتحاشى النظر إلى عينيه.. أخاف من أن يتكرر الأمر من جديد.. هل أتحمل مرارة انتظار؟ لهفة؟ قلق؟ أشواق؟

طب والله يا حازم.. خايفة أحبك!

هذه هي الحقيقة كلامه وكل ما قاله يُبرهن لي أني في طريقي للوقوع في حبه.. وأنا امرأة لم تعد تصلح للحب.. لم تعد تقوى على الحياة!

الفصل السابع عشر

خالتي بتسلم عليك

سلام على من أولئك الذين رأوا جدار روحك يريد أن ينفض فأقاموه، ولم يفكروا أن يتخذوا عليه أجرًا.. وسلام على "مصطفى"، الذي رآني أستغيث.. كدت أركع تحت قدميه في توسل.. لم يشعر بهواني وأنا أرجوه أن يبقى.. رآني أهوى ولم يحرك ساكنًا.

الاستقرار بات كلمة مجهولة بالنسبة لي..

فكرتُ في مصيري في مُستقبلي كلمة يُرثى لها.. أي مستقبل هذا؟

عدتُ للحيرة مجددًا!

لا بد أن أضع حدًا لكل ما يحدث ولو دفعني ذلك إلى إلقاء نفسي أمام واحدة من هذه السيارات مرة ثانية.

كلمة "حازم" التي قالها وأنا أفتح الباب كي أخرج من الشقة، وأرحل قبل أن أُلوث المكان أكثر من ذلك.

عاهرة أمامهم وشريفة أمامي وهذا يكفيني".

رجتني "ميرنا" في توسل أن أظل معه ولو كلفني ذلك الجلوس في بيته كخادمة.. هي فرصة لن تتكرر أن أجد من يفهم ويشعر ولو فرطت فيها فلا

obeikan.com

ألومن إلا نفسي هكذا حذرتني.

ومع ذلك تركته، في الوقت المثالي!

القدر يُرتب كل شيء بعناية.. زوجته على وشك الولادة ليتها تُنجب ولدًا.

أن ترحم الفتاة من أن تُعاني وتُكابد وتتحمل كل هذا.

الكفار كانوا أشد عقلانية.. فقط .. أطلقنا عليهم جهلاء لجهلنا وغبائنا!

كانوا يوأدون الفتيات.

يا لرحمة قلوبهم، قتل النفس مرة أكثر رحمة من ذبحها عشرات المرات.. من محاصرتها بالنظرات والتلميحات في كل مكان، من كلمة "لا" التي تُقال لها أكثر من أي شيء.

من منعها من ممارسة أي شيء تريد إلا بوجود زوجها بجانبها.. لو ضربها فهو الرجل ولا يمكن إلقاء اللوم عليه، ولو فكرت في رفع صوتها فأهلها مخطئون ولا شك وأهملوا تربية ابنتهم،

وتعليمها أصول الدين وأبسط قواعد الأخلاق.

"الأخلاق"، التي يجهلونها ويزعمون أنهم أعلم الناس بها.. القوانين التي سنوها والأعراف التي شرعوها وتوارثوها كي تنشأ الفتاة منذ نعومة أظافرها يخافون عليها من الناس، ولا يخافون عليها من الله.

لم يُشر أحد أن ما أقوم به حرام وأن جزاءه اللعن والطرد من رحمة الله

obeikan.com

والجمر و ...

كل ما قيل "مفكرتيش الناس هتقول عليكي إيه"؟

هذا هو الواقع الأليم.

استطعتُ إجادة المهنة الجديدة بسرعة، بل وبلغت بي الدرجة من الإتقان إلى التوسع أكثر وأكثر مع فتاتين أخريين كلتيهما يتنافس في درجات البؤس والشقاء.

تعود واحدة منهما في الصباح وعلى وجهها علامات الامتعاض، والأخرى تكرر رغبتها في الإبلاغ عن نفسها، ولكن خوفها من ردود أفعال سكان منطقتها يمنعها، وكذلك أشقائها الصغار.

أخبرتها ببساطة أن بإمكاني تولي أمر أشقائها وعائلتها كلها ولكنها ظلت تعمل.

ليس المال وحده إذن.. بداخلها رغبة ولكنها ترغب في ادعاء الفضيلة والتحجج أنها مُجبرة

والحقيقة غير ذلك.

وبعد مدة وجدت "حازم" يحادثني ويدعوني لحضور السبوع.

أهو أحمق؟

قبل أن أرحل من عنده أخبرته بأنني سأعود للعمل وأن كل محاولاته لن

obeikan.com

تُجدي، ومع ذلك يُصر على دعوتي!

أتحركه شهوته هو الآخر؟

لا يبدو أنه من هذا النوع من الرجال..

أيفكر أنه من الممكن أن أتراجع؟ ألا يعلم النجاح المبهر الذي حققته في هذه المدة القصيرة وبمرور الأيام سأحقق المزيد والمزيد.

الطريق مفروش بالورود ولم تصادفني أي مشكلة إلى الآن.

حتى الشعور بالذنب.. "البادئ أظلم"، وأنا لم أكن قط البادئة!

لقد ذهبت لزيارة أمي.

لا تزال في غيبوبة.. قبلتُ يدها دون خوف، لو كانت مُدركة لما حولها لقصصتُ عليها كل ما حدث.. لن تحزن!

ما الذي أقوم به ويدعوها للحزن على العكس فلتطمئن.

ولبيتُ دعوة "حازم" وتأهبتُ للذهاب، لم أحضر هدية عامدة فلن يقبلها بكل تأكيد والحُجة واضحة.

قالها لي "حارس العقار" ذات مرة.. هذا الخمسيني ذو الجلباب الرمادي الذي لا يغيره شكرني بصوتٍ عال:

مش عايزين حاجة، الرازق هو الله. -

obeikan.com

رأيته يصفع ابنته ذات مرة لأنها تحدثت معي ورأيته بعدها بأسبوع بمرآة سيارتي يختلس النظر إلى واحدة من الفتيات اللاتي يعملن معي.

وصلتُ إلى بيت "حازم".. ما أشبه الليلة بالبارحة!

ابنته غاية في الجمال.. رق قلبي فور رؤيتها وتخليتُ عن القناع الذي لازمني منذ فترة مزاولتي العمل.

وعدتُ لأجلس وحدي بعيدًا غن الصخب واستأذنته في فتح الشرفة ولم يُمانع وفكرت في هذه الصغيرة.

أتمنى لها الحياة الهانئة.. حياة لا تُرغم فيها على التعامل مع هذه الكائنات.

عليها فور أن تكبر أن تُسافر وتتجه إلى بلد بعيد عن هنا.

ونظرتُ للقمر الذي يُنير السماء وتذكرت.

"ماهيتاب"، الاسم الذي فكرتُ أنا و "مصطفى" أن نُطلقه على ابنتنا.

وكنتُ أسأله في سذاجة:

- مش عايز ولد؟

فيخبرني بأنه يريدها أن تكون مثلي ويريد "أسماء" أيضًا أن تكون مثلي.. "أسماء" التي خاف عليها من أن تمد يدها وتُصافحني!

نسي أني الشخص ذاته الذي طالما دعا أن يرى أخته تسير في نفس الطريق الذي سرتُ فيه..

obeikan.com

"الانتقام والثأر"، لا توجد نشوة مثلهما! ولو كان ذلك على حساب نفسي.

أمامي في المبنى المجاور صورة لأحد الشباب وشريطة سوداء ومكتوب في أسفل الصورة "شهيد المجزرة".

لا أهتم أي مجزرة فقد أصبحت أمرًا عاديًا في بلادنا، وعلى كل أم أن تُودع ابنها قبل نزوله حتى لو كان ذاهبًا إلى مباراة كرة.. يشجع فريقه ويهتف له.

لا أعرف إن كان النظام يُعدها بالفعل جريمة وخروجًا عن القانون جزاؤه "القتل".

كل ما أعرفه أن أهله يجب أن يقتصوا مثلما اقتصصت أنا من الجميع.

أجبرهم الآن على الخوف، من التفكير حتى قبل بدء الكلام معي.

منذ حوالي أسبوع رأيتُ مجموعة من زملائي في الكلية ولم يجرؤ أحدهم على الاقتراب مني

ومصافحتي.

لم أكن أتوقع أن يُعلقوا تلك التعليقات على صفحاتهم الخاصة على مواقع التواصل الاجتماعي، منهم من تبرأ وندد واستنكر واعتبره عارًا على الكلية وهناك بعض الأساتذة الذين اعتبروه عارًا على جامعة القاهرة كلها.

مساكين وأغبياء في الوقت ذاته.

عشر دقائق في تلك الليلة مع "يحيى" في الشاليه.. حينما أغمضتُ عيني

obeikan.com

ووجدته بجانبي ورأيت بقعة الدماء قمت مسرعة أرتجف.

تأكدتُ من أني أهذي وأنه لم يخرج من الحمام بعد وأن كل هذا كان من أثر السفر.. كان حلمًا.

إلى الآن لا يعلم أحد الحقيقة، ولا جدوى من إخبارهم!

هل من فائدة؟ لو علم "مصطفى" أن كل ما أُذيع ونُشر هو أوهام وأن بإمكان الجميع التأكد في أي لحظة مما أقول ومن صدقي.

لو أردت أن أثبت للجميع وأريح قلوبهم أني لم أخطئ ولو مرة، وأن المقياس الذي يتأكدون به

ويعدونه معيارًا للحكم لم يُمَس.

ولكن..

ليفكروا كما يشاءون وليُطلقوا أحكامهم جُزافًا وأنا في طريقي في إدارة العمل دون الاقتراب منه.

والمُداومة على زيارة أمي.. والحفاظ على صلاتي باستثناء أيام العذر الشرعي.

ربما شفاؤها هو ما قد يدفعني للكف عن هذه المهنة... رؤيتها أمامي من جديد.. ستفرح.. ستفرح لو أخبرتها أني لا زلتُ بخير وسترد على جميع الجلادين بقوة.

obeikan.com

قد تقوم بذلك على الملأ.. تستدعي الطبيب وكل الأقارب والمعارف بل تقوم بتصوير المشهد وتنقله على الهواء لو أرادت مثلما فعل "أبو صافي" مع ابنته.

حاول إقناع الجميع والإثبات لهم أن ابنته لم تُخطئ.. وما شأنهم؟

أبناؤهم يقومون بذلك عشرات المرات ولا يتحرك أحد.

الفعل واحد أيها العقلاء والخطأ هو ذاته.. ولكنكم لا تجبرون رجالكم على الاعتراف بالخطأ.. تطلقون على أفعالهم "طيش شباب.. ربنا يهديهم".

الله لن يغفر لكم، ارجعوا إلى آيات الله وتدبروها.. افتحوا المصاحف التي تُزينون بها سياراتكم

وتتراكم عليها الأتربة.

لعلكم تعرفوا وتدركوا أخيرًا أن الادعاء الذي أقوم به للحفاظ على نفسي هو عين الصواب.

أمي لو قامت وحكيتُ لها ستجبرني على قول الحقيقة وفيها راحة لن أمنحها لهم.

حينها لن يهتم أحد!

لن يتناول أي موقع أو جريدة الموضوع مثلما فعلوا في الماضي.

انتشر الخبر في لحظات قلائل، وتساءل الجميع كيف لفتاة من علية القوم..

obeikan.com

من أسرة ثرية.. أن تقوم بهذا؟

تترك أفضل الكليات وتختار هذا المصير بيدها؟

فرضت عليهم عقلياتهم هذا التفكير مثلما فرضت على خالتي أن أترك لها المنزل، وأن أشق طريقي الجديد الذي أراه مستقيما ويراه الناس انحرافًا واعوجاجًا.

وأخرجتُ الورقة.. لا زلت محتفظة بها لأنها تُذكرني به وبحديثي معه في تلك الليلة.

كانت فكرة جالت بخاطري وسجلتها.

الورقة أصبحت مهترئة بعض الشيء وتمزقت من بعض الجوانب ولكن لا يهم فمهما مرت السنوات سأظل محتفظة بالكلمات التي كُتبت علي سبيل المزاح والتحدي في ذلك اليوم.

كنا معًا أمام شاطئ البحر، كنتُ بالفعل ساخطة من كثرة المُضايقات التي تعرضت لها في هذا اليوم لأني نزلت وحدي إلى حمام السباحة ولم أنتظر "ياسين".

وعبرتُ عن ذلك بالكتابة.

تساءلتُ بالكلمات عن اللحظة التي تنعم فيها الفتيات في هذا البلد بحرية ولو ليوم واحد، وحاولت أن أشير لأن تخاذل الرجال ورضاهم بهذا الوضع خطأ في حد ذاته.

obeikan.com

خطأ جسيم!

لماذا لا يقفون في صفنا ونحن على حق ونحن الضحايا رغم محاولات "حازم" المستميتة أن يثنيني عن قراري بدعوة أن كل الفتيات تتعرض لذلك، ومن غير المعقول أن تقوم كل فتاة بما قمت به.

حينما شرحتُ له قصدي حاول إقناعي أن تحقيق النجاحات هو خير رد.

هو على حق ولكن أنى لي بذلك.

تُذكرني هذه الورقة بنفسي القديمة!

النفس التي قضي عليها "ياسين" برحيله المفاجئ بحثًا عن مصالحه الشخصية والزواج بمن أحب، وفي المقابل لو نطقت فتاة وصرحت برغبتها في الزواج من أحد بعينه لكان الموت أهون عليها.

النفس التي وكل إليها "مصطفى" الطعنات الواحدة تلو الأخرى دون رحمة.

وسلمتُ على "حازم" ورحلت.

هذه المرة لم أسأله عن "مصطفى"!

قرأتُ في عينيه أنه دُهش من عدم إبداء رغبتي في معرفة أي شيء عن صديقه.

لماذا تعجب؟

فلترتح يا "حازم" أنا لم أعد تلك المرأة الهشة التي تحتاجه بجانبها.

obeikan.com

ربما أود رؤيته فقط لأخبره أنه ظن نفسه رجلًا بخوفه على "أسماء" وزجرها من أن تُلقي بالسلام عليّ حينما قابلته في المطار.

ربما أود تنبيهه أنه حين انزعج من وجودي مع "أروى" وهي فتاة لا أعرف عنها شيئًا كان هو في الوقت ذاته مع "هيا" في شاليه وحدهما وليست المرة الأولى.

ربما أود أن أؤكد له أن رائحة السجائر لا زالت تُضايقني وأني الآن لا أصافح بالأيدي والمرة التي نزلتُ فيها مع "ميرنا"، وما أن رأيتها تدلف إلى سيارة بجوار أحدهم هرولت مسرعة من الخوف، مثلما فعلت مع "يحيى".

الأمر يصعب عليّ تصديقه أو تخيله من الأساس.

ربما أود الابتسامة في وجهه وتذكيره أني كنتُ على حق فليس المال وحده هو السبب.. لقد مرت عليّ أيام اقترضت فيها ممن أعرف ولم أفكر حينها ولو للحظة في استغلال الجسد للحصول على المال.

اللحظة التي قررتُ فيها لم تكن خلال الشهرين اللذين قضيتهما عند "خالتي"، ولم أكن قد أتممتُ عامي الواحد والعشرين بعد، ولم أمتلك حق التصرف في الأموال، بل كانت حقيبة يدي ممتلئة عن آخرها بالنقود، وأيضًا بشهادة الـ"دالاف" التي حصلتُ عليها والتي تُعتمد من فرنسا.

أود إخباره أن "أسماء" التي طالما تمنى من الله ودعاه أن تكون مثلي.. بالفعل ستكون مثلي لو ظل يضيق عليها الخناق إلى هذه الدرجة.

أود ... أود احتضانه والبكاء لدقائق ثم العودة للتماسك مرة أخرى، والاقتناع أني لم أخطئ حين فكرت هذا التفكير.

لم يكن أمامي حل آخر واستسلمت ولن تفعل باقي الفتيات مثلي... لا أدعوهم إلى ذلك وهن لن يجرؤن على فعل ما فعلت. مجرد الادعاء أني أزاول المهنة وأرافق فتيات تعملن بها خطأ أقر بذلك ولن تكون هذه هي الوسيلة التي تلجأ إليها كل فتاة. ولكن من الآن إلى أن تجد إحدانا الوسيلة سأظل أدعو بخوف وخشوع.

"اللهم اغفر لي".

استقليتُ السيارة وبدأتُ في قراءة الورقة... قلتُ لنفسي:

لا بأس من دقائق قليلة أقضيها في القراءة وأكمل بعدها طريقي الذي أراه مستقيمًا ويراه الناس انحرافًا ليظل سؤالي:

"من الذي سمح لهم بالحكم من الأساس؟".

ولأجيب عن هذا السؤال بالإجابة المعهودة وبالكلمة التي أراها التعليق المناسب على ما كل ما حدث إلى الآن... وجدته أمامي..

لم أكن أتوقع قدومه وأكاد أجزم أنه هو الآخر لم يكن يعلم أني هنا.

لو كان متأكدًا لما جاء!

مرت لحظات صمته كسنوات مع نسمات الهواء المنعشة، بدا المشهد مُثيرًا

obeikan.com

وتساءلت:

كيف سيبدأ؟ ماذا سيقول؟ هل يتهمني مجددًا ويُنصب نفسه قاضيًا يُطلق حكمه دون هوادة؟ أم يُفكر بقلبه ولو مرة، ويُحاول أن يسألني عن السبب؟

وفكرت في أن أسأله أنا:

إن كان يشعر بالذنب أو إن جال بخاطره يومًا أنه السبب فيما وصلت إليه.. أن تخاذله هو ما قادني إلى الهاوية.

وسألته وأنا أعرف الإجابة مُسبقًا..

كالعادة، أنا المُخطئة وإن كان خطأي هذه المرة لا يُغتفر لأنه يتعلق بالشرف.

الشرف لا يُمكن التهاون فيه..

مش كده يا "مصطفى"؟

و لم يرد..

وأردفت:

حتى مفكرتش تسأل عني!

آخر حاجة عرفت إنك روحتي لخالتك.

آه فعلًا.. خالتي بتسلم عليك.

تمت

obeikan.com

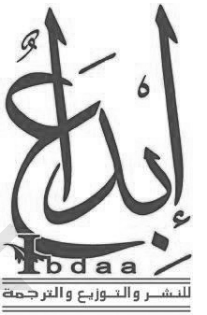

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com